

# التوسل

سارة مناعي

نسخة محسنة ومراجعة من رواية أنتوليا:

للمؤلفة بسارة مناعي

تمت مشاركة هذه الرواية إلكترونياً من طرف الكاتبة

ماذا لو كان هناك ملك ظالم يخاف أن يُسلب ملكه؟  
فأبرم صفقة مع أعظم قوة على وجه الأرض...  
فما الذي سيحدث إذا نقض وعده؟

في قرية صغيرة، تتربع على تلال مغطاة بالحنطة والزهور  
البرية

كانت البيوت الحجرية تتناثر بين الطرق الترابية الضيقة،  
يتخللها أصوات العصافير والرياح التي تعانق الأشجار الطويلة.

رائحة الخشب والدخان تملأ الأجواء، وتلمح بين الحين والآخر  
ضحكات الأطفال وهم يركضون في الساحات.

هنا، في قلب هذه القرية الهادئة، تقع المدرسة ، حيث تدرس  
سارو، فتاة في الصف الثاني، مجتهدة وذكية، لكنها وحيدة بين  
زملائها، كأنها نجمة بعيدة في سماء فارغة.

كان شهر فبراير قد بدأ، والرياح الباردة تهب من بين التلال.

حاملة معها رائحة الأرض المبتلة وهدير الأشجار. بينما كانت  
سارو تستعد لامتحانات نهاية العام.

جاء الإعلان من الوزارة بأن العام الدراسي سينتهي بعد شهر  
فقط، وأن الامتحانات ستجرى مع حلول فصل الربيع.

الخبر أفرح بعض الطلاب وأثار قلق آخرين، أما سارو، فقد  
شعرت بمزيج من التوتر والارتباك؛ فهي لن تتمكن من زيارة  
المكتبة التي اعتادت اقتناء الكتب منها سرًا.

ولا من الخروج كثيرًا، إذ كانت حياتها محصورة بين جدران  
المنزل وصرامة والدتها، وكانت الوحيدة لديها.

كانت والدتها تحبها بشدة، لكنها حازمة في كل الأمور.

لا يسمح لها باقتناء حيوان أليف، ولا بقص شعرها، ولا بالخروج إلا للدراسة.

كما أنها تتجنب السماح لها بزيارة الجيران الذين تراهم غريبين الأطوار.

ومع ذلك، كانت سارو تتوق لبعض الحرية، لحياة تشبه حياة أقرانها، لتختبر العالم الذي يملؤه الفضول والمرح والكتب والمغامرات الصغيرة.

في صباح أحد الأيام ، بعد ليلة باردة مليئة بأصوات الرياح، ساعدت سارو والدتها في تنظيف المنزل.

حيث كانت أوراق الأشجار متناثرة على الأرض بفعل العاصفة. وعندما عاد المكان نظيفاً

عادت إلى غرفتها، إلى عالمها الخاص، حيث كل زاوية تحكي قصة وكل كتاب على الرف يفتح أبواباً لأماكن لم تطأها أقدامها بعد.

جلست على مكتبها، وأخذت دفترها وأقلامها، محاطة بصمت المنزل الذي يعكس ضوضاء الحياة في الخارج، تفكر في المستقبل وما سيحمله من امتحانات وتحديات.

كانت عازمة على النجاح، على إثبات أنها قادرة، وربما على كسب لحظة من الحرية أو ابتسامة من والدتها.

تلك اللحظات الصغيرة التي تصنع عالمها بالكامل.

قبل يومين من موعد الامتحانات، شعرت سارو بتعب غريب، يملأ جسدها ببطء

وكان الرياح الباردة التي تعصف بالقرية قد دخلت معها إلى غرفتها، تحمل معها شيئاً من القادم...

حاولت سارو الذهاب إلى مركز الامتحان بكل جهدها، متسلحة بالعزم والرغبة في جعل والدتها فخورة بها ولو لمرة واحدة. دخلت قاعة الامتحان وهي تشعر بنبض قلبها يعلو مع كل خطوة، وكل ورقة على الطاولة أمامها كأنها تحدٍ صغير.

بعد انتهاء الامتحان، خرجت منهكة، شعورها مزيج من التعب والارتياح.

لكنها رفضت التحدث عن أدائها، رغم أن والدها ووالدتها كانا سيحرصان على السؤال عن كل التفاصيل.

عادت إلى المنزل بصمت، دخلت غرفتها وخلعت ملابسها  
الدراسية لتتغير بسرعة.

ارتدت بنطالاً أسود وسترة بيضاء، ثم فتحت خزانها التي كانت  
تحتوي على المبلغ الذي جمعه بصبر على مدى شهر،  
وأضافت إليه بعض النقود التي أعطها لها والدها سرّاً.

تحقق منها، وتأكدت أن المجموع يكفي لشراء الهاتف الجديد  
الذي حلمت به.

فكرة الشراء بدون علم والدتها جعلتها ترتجف قليلاً من التوتر،  
لكنها كانت متحمسة جداً.

علمت أنها لو كشفت عن المال، فلن يصدقها أحد، فكان من  
الأفضل أن تحتفظ بالأمر لنفسها، وتحافظ على سرها الصغير  
ككنز ثمين.

في صباح اليوم التالي، استيقظت سارو باكراً مع أول خيوط  
الشمس التي تسللت عبر نافذة غرفتها.

تنفست بعمق، وسمعت صوت والدتها وهي تحضر الفطور:  
الحليب الدافئ يفوح برائحته المعتادة، القهوة تعبق في المطبخ،  
وبعض البسكويت والخبز الأسمر. ترددت للحظة في كشف  
خطتها، ثم قالت بصوت هادئ لكنه متوتر:

أمي، ستزورني صديقتي بعد قليل، وسنذهب لنتنزه قليلاً،  
وأعدك أننا لن نتأخر.

ابتسمت والدتها، لكنها أضافت بصراحة:

"لا تطيلي الغياب، وعودي مباشرة إلى المنزل."

أجابتها سارو بحزم مختلط بالتوتر:

—نعم، حاضر يا أمي، لن أتأخر وسأعود بسرعة.

خرجت سارو، شعورها يموج بالإنارة والخوف في أن واحد.

ركبت دراجتها، وطارت بين الأزقة الضيقة للقرية، مرّت  
باليوت الحجرية القديمة.

شعرت بصوت عجلات الدراجة على الطريق الترابي وكأنها  
تعزف موسيقى خاصة بها

الهواء البارد يلاعب وجهها، وتتناثر أشعة الشمس بين  
الأشجار، بينما تشاهد الأرضية المرصوفة بالحصى والملفات  
القديمة على أبواب المنازل.

كل خطوة تقودها نحو المدينة كانت مليئة بالحماس، كل حركة في الدواسات تجعل قلبها يدق أسرع، ومع كل بيت تمر بجانبه، كانت تشعر أنها تقترب أكثر من عالمها المستقل

بعيدًا عن القيود والصرامة التي تحيط بها في المنزل. أخيرًا

وصلت إلى منزل صديقتها، وأخبرتها بكل شغف عن خطتها لشراء الهاتف وبعض الأغراض الصغيرة.

بعد أخذ إذن والدتها، انطلقتا معًا، متجهتين نحو قلب المدينة، حيث تنتظر المغامرة الصغيرة، والإثارة

والحرية التي حلمت بها سارو طوال الوقت.

وعندما لمحت سارو محل الأجهزة الإلكترونية، توقفت فجأة، وكان قلبها يرفرف بقوة داخل صدرها.

شعرت لأول مرة منذ زمن طويل أنها ستفعل شيئًا لن تسمح لها والدتها به. نظرت إليها صديقتها دينا بفضول وسألتها:

هل وافقت والدتك على شراء الهاتف؟

أجابت سارو بصوت خافت، لكنها كانت متوترة ومتحمسة:

لا ... لم توافق.

ارتفعت حاجبا ديننا بدهشة:

إذا من أين لك المال؟

ابتسمت سارو بابتسامة صغيرة، وكأنها تخفي سرًا كبيرًا:

لقد جمعته من النقود التي يعطيها لي والدي ... كنت أدخره  
طوال فترة.

دخلت سارو المتجر، كل خطوة كانت كأنها تتخطى الحدود التي  
وضعتها والدتها طوال حياتها.

شعرت بحرارة في وجنتيها، وأنفاسها تتسارع، وكان كل ثانية  
فيها تشبه قفزة نحو الحرية. اقتربت من البائع وسألته عن  
الأسعار بعينين لامعتين.

بعد لحظات، اختارت هاتفًا متوسط الحجم، أبيض اللون، دفعت  
المبلغ، وأمسكت الهاتف بين يديها كأنها تمسك بحلم طال  
انتظاره.

خرجت من المتجر، والهواء الخارجي يملؤها بالحرية، وكل مرة كانت تلقي نظرة إلى الكيس، تشعر بأنها تخاطر وتعيش لحظة غير مسبوقه في حياتها.

توجهت سارو ودينا إلى مقهى قريب.

وجلستا لبعض الوقت، لكن كل ثانية كانت تشعر بها سارو وكأنها تتحدى قوانين المنزل لأول مرة.

عندما لمحت الساعة على الجدار، قفز قلبها بسرعة، وقالت بخوف:

"علينا العودة، ستغضب أمي إذا تأخرت... لقد وافقت على خروجي بصعوبة."

أجابتها دينا بابتسامة تشجيعية:

حسنًا، لنرحل!

ركبتا الدراجة وانطلقتا، كل ضربة دواسة تجعل قلب سارو ينبض أسرع.

وكل شارع وبيت يمر بجانبها يجعلها تشعر أنها تعيش لحظتها الخاصة لأول مرة.

أخيرًا، وصلنا إلى منزل دينا، ودعتها بسرعة، وشرعت في العودة إلى المنزل.

شعور مزيج من الحماس والخوف يملأها، فهي تعرف أن والدتها ستغضب لو اكتشفت الأمر، لكنها كانت متحمسة لأن تجرب شعور اتخاذ القرار بمفردها لأول مرة.

فتحت الباب، تقدمت ببطء، وكل خطوة كأنها تقف على حافة مغامرة. لم يكن أحد في المنزل.

فدخلت غرفتها بسرعة، أخفت الهاتف بعناية، وغيرت ملابسها، وغسلت يديها وأطرافها وكأنها تحاول محو كل دليل على مغامرتها.

لم تمض دقائق حتى سمعت صوت الباب يفتح، وعرفت أن والدتها قد عادت.

انتظرتها حتى دخلت، وبدأت والدتها تنادي:

"سارو... سارو... أين أنت؟"

أجابتها سارو بخفة وهدوء:

"أنا في غرفتي، ماما، يمكنك الدخول."

دخلت والدتها، ونظرت إلى الهاتف الذي كانت تخفيه سارو. بدا على وجهها الذعر وكأنها رأت شيئاً غير متوقع.

حاولت سارو شرح الأمر، ولكن كلماتها لم تُنطق، وفجأة شعرت بالخرج والإثارة معاً.

قالت بصوت منخفض:

"لقد اشتريت هاتفًا... ظننت أنها ستكون مفاجأة، وهو أرخص هاتف استطعت الحصول عليه..."

صمتت والدتها قليلاً، ثم سألت ببرود:

ومن أين جاء المال؟

أجابت سارو بثقة، وكأنها تدافع عن حرية اكتسبتها للتو:

جمعت المبلغ منذ فترة، وظننت أنك ستسعدين.

ابتسمت والدتها ابتسامة باهتة، بلا فرح واضح، ثم خرجت.  
وبعد لحظات، دخل والدها، السيد تامر، وظهرت على وجهه  
نفس النظرة الحذرة والجدية.  
خرج دون كلمة، تاركًا سارو تجلس على حافة سريرها، قلبها  
يفيض بالإثارة والتمرد الصامت.

ورغم ردة فعل والديها، شعرت سارو بالطمأنينة لأول مرة  
وكانها اكتشفت أنها قادرة على الاعتماد على نفسها، أن تتخذ  
قراراتها بمفردها. لاحقًا  
لاحظت اختفاء بعض الأموال التي جمعتها، لكنها لم تخبر  
أحدًا، وتكرر الأمر عدة مرات، حتى شعرت أن شخصًا ما بدأ  
في أخذها...

في صباح يوم الأحد، خرجت سارو برفقة دينا، الهواء البارد  
يلعب وجهيهما

وأشعة الشمس تتسلل بين الأشجار، ترسم على الطريق خطوطاً  
من الضوء والظل.

توجهن أولاً إلى مقهى صغير في المنطقة الشمالية

جلستا على طاولة قرب النافذة، يتناثر الضوء على وجهيهما،  
وصوت الزبائن يملأ المكان بصخب خفيف لكن سارو شعرت  
وكأن العالم كله خارجها؛ كانت مشغولة بالأفكار التي تدور في  
رأسها، بالإحساس بالحرية لأول مرة منذ فترة طويلة.

بعد ذلك، توجهتا إلى متحف الشارع المجاور، حيث تأملت  
سارو اللوحات والتماثيل، محاولةً أن تغرق في عالم بعيد عن  
صرامة وديتها

عن القيود التي فرضت عليها منذ صغرها. كانت تحس بأن كل  
خطوة خارج المنزل تمنحها شعوراً غريباً بالتمرد، بإحساس  
بأنها تتنفس الهواء لأول مرة بحرية كاملة.

لم تلبث طويلاً خارج البيت، فعدت إلى المنزل في الساعة الثالثة  
مساءً، منهكة، قلبها لا يزال يرفرف بالإثارة والخوف من  
مواجهة والديها.

استلقت على الأريكة بدلاً من غرفتها، غطت نفسها بلحاف  
سميك، وغاصت في النوم محاولة الهروب من كل شيء، من

صوت عقارب الساعة، ومن التفكير في اللحظة التي ستواجه فيها غضب والدتها.

استيقظت فجأة على صوت والدتها، صوتها يحمل نفس الصرامة المبررة التي لم تغب عنها منذ حادثة الهاتف، وعيناها تحملان تلك النظرة التي تقول:

“لقد أخطأت هذه المرة.”

قالت الأم بغضب:

منذ متى تأخذين مالي أيتها الفتاة؟ لقد أهدرت مبالغ كبيرة لأشترى لك كل ما تريدينه، وهكذا تكافئينني؟

تجمدت سارو، شعرت بجسيمات الهواء حولها ثقيلة وكأنها تحاول أن تخنقها. لم تستطع الرد، دموعها انهمرت، صوتها يرتجف:

“لم أكن أنا... لا... أنا لم أفعل شيئاً.”

خرجت والدتها، والنظرة التي أطلقتها كانت مليئة بخيبة الأمل واللوم، وكأنها تقول : "لقد تجاوزتِ حدودك هذه المرة."

ذهبت سارو بعد ذلك إلى والدها، الذي عاد من عمله. حاولت إقناعه بأنها لم تسرق شيئاً، لكن صمت وجهه كان أقسى من أي كلمة، وواصل طريقه إلى الداخل دون أن ينطق بحرف.

مرت الأيام ثقيلة، كل دقيقة كانت كالساعات، وكل محاولة للخروج كانت تواجه بجدار صلب من الرفض. شعرت سارو بالغربة داخل منزلها

وكانها محاصرة في قفص من القيود والصرامة، شعور بالوحدة يملأها. ومع كل يوم يمر، شعرت فجوة كبيرة تتسع داخلها، فجوة من فقدان الثقة في عائلتها، وفي نفسها، وكأنها لن تُسد أبداً.

لم تتحسن الأمور، فأصبحت تقتصر على غرفتها، تتصل بدينا لتكسر صمت وحدتها.

وعندما عادت إلى الدراسة قبل الامتحانات النهائية، بدأت تذهب مع دينا إلى منزلها للمراجعة، كفرصة للهروب من القيود، ولعيش لحظات من الحرية المؤقتة بعيدًا عن منزلها.

مع اقتراب شهر فبراير، واقتراب ميلاد والدتها، بدأت سارو بجمع المال كما كل عام، محاولة أن تشتري هدية تعبر بها عن حبها، عن رغبتها في إسعاد والدتها، وكأنها تحاول إصلاح شيء مكسور بينهما، رغم كل الجفاء الذي تعيشه في حياتها اليومية.

كانت سارو تخفي حصالتها الصغيرة في عمق الخزانة، بين طيات ثيابها القديمة.

كل قطعة نقدية تجمعها كانت بالنسبة لها خيطًا من أملٍ تنتشبت به، علّها تتمكن في يومٍ ما من شراء شيء بسيطٍ لأُمها، شيء يعيد ولو للحظة دفء العلاقة التي بردت بينهما.

كانت تقلل من كل ما يمكن أن تشتريه لنفسها كي توفر أكثر، وكأنها تزرع بذرة حبّ صغيرة في تربة قاسية. وفي الليل، بعد أن تأكل ما يسدّ رمقها، تنزوي إلى غرفتها، تتوسّد حلمها، وتترك خيالها يأخذها بعيدًا إلى أماكن لم تزرها من قبل، إلى أمانٍ كانت بسيطة حدّ الألم. كانت تلك الرحلات الخيالية تُنفذها من ثقل النهار، حتى يغلبها النعاس فيغمرها نوم هادئٍ إلى صباحٍ جديد.

ظروف والديها، رضوى وتامر، كانت أصعب من أن تُحكي،  
لكن سعة خيال سارو كانت ملاذها الوحيد، قاربها الصغير وسط  
موجٍ متلاطم. كلما اشتد عليها الشعور بالخذلان أو القسوة

انسحبت إلى غرفتها بحجّة النوم، لتبني عالمًا آخر بيدي عقلها  
الصغير، عالمًا يتسع لكل ما تتمناه.

في صباح اليوم التالي، كان الكون كله يحتفل بعيد الحب، بينما  
قلب سارو يخفق على وقع هديّة صغيرة أخفتها بعناية: عطرٌ  
زهيد الثمن وأحمر شفاه بسيط، غلّفتهما بورق أحمر تتناثر عليه  
قلوب بيضاء.

لم يكن الغلاف ولا ثمن الهدية ما يهّمها، بل ذلك الشعور العارم  
بأنها ستمنح أمها لحظة حبّ صافية.

ذلك اليوم بدا أطول من المعتاد. الانتظار كان يُبطئ الساعات  
حتى شعرت أن عقارب الساعة تمشي على أطراف أصابعها.  
أنهت دروسها وركضت نحو الحافلة القديمة .

ابتسم لها قائلاً:

«ما بك اليوم يا ابنتي؟ وجهك ملوّن بالفرح!»

توترت سارو لوهلة، وأرادت أن تقول له الحقيقة، لكن طبيعة القرى الضيقة تجعل الكلام يتحوّل بسهولة إلى حكايات أخرى. فاخترت أن تقول بابتسامة صغيرة:

«تحصلت على علامة ممتازة في امتحان اليوم.»

ضحك الرجل وبارك لها، وواصل قيادة الحافلة بصمت.

حين وصلت إلى القرية، مرّت أمام بيت السيّد رضا وزوجته ليلي، حيثهما سريعاً، ثم تسلّلت إلى المنزل بهدوء. كان البيت على غير العادة ساكناً، صمته يحمل شيئاً غامضاً. أغلقت باب غرفتها ببطء وقالت لنفسها:

«أخيراً عدت. سأبدّل ملابسي وأرى ما يحدث.»

مدّت يدها إلى خزانتها، لكن عينيها توقفت عند بابها المفتوح. تجاهلت ذلك أول الأمر، ثم سحبت فستاناً زهرياً وارتدته على عجل. حاولت أن تخفي ابتسامتها كي لا تفضحها عيناها، فاليوم ليس يوماً عادياً بالنسبة لها

قبل أن تخرج سارو الهدية من مخبئها بين الملابس، وقعت  
عينها على ذلك الغلاف الأحمر المطبّع بقلوب بيضاء. تجمّدت.  
همست في داخلها:

«مستحيل... لقد رميت بقاياها بعيدًا.»

مدّت يدها تبحث بين الطيّات، لكن الفراغ ردّ عليها. في لحظة  
ارتفع النبض في عنقها كأنه طرّق، وضاق نفسها

. «هل أُمي علمت بالأمر؟ لكنني خبأتها جيدًا... لا يمكن لأحد  
أن يراها!»

تسارعت الأسئلة في رأسها كأموج متلاحقة، كل واحدة تضرب  
الأخرى. أصابعها ترتعش. اقتربت من النافذة، تبحث عن هواء،  
صدرها ينبض، والعرق يتجمع على كفيها. على طرف السرير  
رأت بقايا الورق ممزقة بعشوائية، كأن أحدهم اقتلع سرّها من  
بين أصابعها.

خنقتها الغصّة، وانسابت دمعة ساخنة، وهي تهمس لنفسها:

«من فعل هذا؟ أفسدوا مفاجأتي... من تجرأ أن يبعثر  
مشاعري؟»

قلبا يدقّ بسرعة حتى صارت تسمع دقاته في أذنيها، كأن  
الغرفة كلها تضيق.

خرجت بخطوات ثقيلة إلى الممرّ، تلتقط أنفاسها، تلتفت حولها.  
من الحمام التقطت أذناها همساً، صوتين منخفضين، جمل  
متقطعة، كأنهما يحاولان إخفاء شيء. اقتربت ببطء من الباب،  
يذاها ترتجفان، وكل خطوة تُثقل قلبها أكثر.

سمعت أمها تخبر أباهما بما وجدت في غرفة ابنتها. الكلمات  
كانت مثل سكاكين صغيرة.

أمها امرأة شديدة الحذر، كثيرة الشكّ، تخاف على ابنتها من  
المجتمع أكثر مما تثق بها.

دفعت سارو الباب فجأة. دخلت إليهما، عيناها تلمعان بمزيج من  
الغضب والانكسار، وصوتها يخرج متقطعاً بين شهقات النفس:

«لا أريد لأحد أن يدخل غرفتي بعد الآن. لقد فقدتم ثقكم بي...  
لكنني اليوم فقدت ثقتي بنفسي أيضاً. حتى حيزي الصغير لم يعد  
لي.»

تنفست قليلا ونظرت إليهم بعيناي باكيتان وأكملت  
: " أنا أفهم خوفكم عليّ، لكن ما تفعلانه يخنقني. »

توقفت، ارتجف صوتها وهي تحاول أن تقول كلمة «الهدية»،  
ثم انكسرت جملتها وبكت. ساد الغرفة صمتٌ ثقيل، دقات قلبها  
تملأ المكان، والدمعة تتأرجح في عينيها بينما نظرة أمها معلّقة  
بوجهها.

حاول الأب أن يهدّئ:

«الأمور ليست كما تظنين، نحن فقط نخاف عليك ونريد لك  
مستقبلاً أفضل...»

قاطعت سارو بعينين دامعتين:

«اليوم هو... عيد ميلاد أمي. هذه الهدية كانت لها. أنتما جعلتما  
الأمر أسوأ.»

الندم انعكس على وجهيهما، لكن كان الوقت متأخراً.

وعندما شعرت بالهواء يثقل صدرها. خرجت إلى الحديقة في آخر القرية، تمشي ببطء، يداها باردتان، والناس ينظرون إليها بدهشة. الفتاة التي كانت دائماً تضحك وتحیی الجميع بدت اليوم شاحبة، منهكة، كأن كل العالم يضغط على كتفيها.

وما إن وصلت إلى الحديقة حتى انكشيت على نفسها على مقعد خشبي تحت شجرة الصنوبر العجوز. عانقت ركبتيها بذراعيها كما لو كانت تحتمي من بردٍ لا يُرى، وراحت تحدّث نفسها بصوت خافت يتكسر على شفيتها:

«لا فائدة... مهما فعلت، عائلتي لا تثق بي. أمي تظنني أفعل أشياء لا تليق بي. خوفهما عليّ صار قيداً يحيطني ولا تفسير له».

كان الهواء البارد يحمل رائحة التراب الرطب ويغرسها في صدرها، فاستيقظت معها ذكريات طفولتها: كيف كانت أمّها تنهرها حين تذهب إلى المكتبة العامة دون إذن، أو حين تحاول تكوين صداقات جديدة، وكيف كانت تمنعها حتى من الاقتراب من الغرباء.

تذكّرت الضربات الخفيفة التي لم تكن تؤلم جسدها لكن كانت تترك ندوباً في روحها، وكلمات التوبيخ التي كانت أشد من لسعة العصا.

همست لنفسها مجددًا وهي تغرز أظافرها في كفيها:

«لم أشعر يومًا أنني في مكاني الصحيح...»

. وصارت صور قديمة تتدفق في رأسها: خوفها من زملاء المدرسة، سكونها الإجباري، لجوؤها الدائم إلى غرفتها أو لصديقتها هربًا من البيت.

شيئًا فشيئًا تحولت من طفلة تطلب وتجادل إلى شابة لا تطلب شيئًا ولا تنتظر شيئًا.

والآن، شعرت بثقل سنوات الحرمان على كتفيها. لم تكن مثل باقي الفتيات في سنها: لا رحلات، لا متاحف، لا كتب، لا بلدان جديدة. حتى الطابق السفلي للمنزل كان محرّمًا عليها كأنه يحوي سرًا أكبر من قدرتها على الفهم.

كانت كل هذه الذكريات تضغط على صدرها حتى صارت أنفاسها متقطعة. العالم يبدو وكأنه متواطئ مع خوف أمها عليها ليحاصرها أكثر. ومرّت السنين حتى بلغت العشرين ولم تكتشف بعد سر ذلك المنع المستمر، فقط أدركت أنه ليس المال.

عادت إلى البيت مع حلول المساء، تأخذ نفس الطريق كأنها تسير في حلم ثقيل. شيء ما كان يثير القشعريرة في جلدها: كل البيوت غارقة في الظلام إلا بيتهم، يضيء كأن شيئاً فيه يجري. فضّلت أن تبتلع فضولها هذه المرة وألا تسأل.

طرقت الباب، فتح لها والدها، دخلت بخطوات هادئة إلى غرفتها، تلك الزنزانة/الملجأ التي صارت مأواها الوحيد. حاولت أن تنام لكن النوم كان بعيداً. ظلت تحدّق بالسقف، تلاعب شعرها بأصابع باردة حتى غلبها النعاس في لحظة هدوء نادرة.

وفي صباح اليوم التالي، حين استيقظت وودعت فراشها الدافئ، فتحت خزانة ملابسها لتغيّر ما ترتديه... لكن ما إن أزاحت سترتها حتى ظهرت تحتها مفاجأة صغيرة غلفتها طبقات الغبار والوقت: دفتر صغير يحمل على غلافه اسمها مكتوباً بخط رفيع كأنه خجلٌ من الظهور، وعلى أطرافه رسومات طفولية بألوان شتّى تلمع رغم بهتان الورق. ارتجف قلبها وهي تلمسه، كأنها تلتقط شيئاً حياً ينتظر أنفاسها منذ زمن.

فتحت الصفحات برفق، أصوات الورق القديمة كانت كأنها أنين سرّ دفين. كلمات صغيرة متناثرة هنا وهناك، أسرار وأمنيات نسجتها يدها منذ سنوات بعيدة. قلبت الأوراق بسرعة، عيناها تتسابقان مع أنفاسها حتى وقفت عند الصفحة الأخيرة

رفعت حاجبها في دهشة، رغم أنّها صاحبة الدفتر شعرت وكأنها تتلصص على حياة فتاة أخرى. أخذت تقرأ وهي تبتسم، أمنيات بسيطة وناعمة تشبه قلبها آنذاك. لكن أسفل الصفحة، بخط دقيقٍ جدًا، كانت هناك عبارة واحدة:

«أتمنى يومًا ما أن أكون بمكاني الحقيقي».

تجمّدت يداها على الصفحة، شعرت بارتباك حاد. متى كتبت هذا؟ وكيف؟ وعن ماذا كنتُ أتكلم؟ حاولت أن تقنع نفسها بأنها كتبتها لحظة ضيق أو رغبة في الهروب،

لكن قلبها كان يعرف أن هناك معنى أعمق لا تريد أن تراه بعد. غلقت الدفتر ببطء كمن يعلق بابًا على صوت قديم.

وقفت عند النافذة وفتحتها دفعة واحدة. هواء الصباح تسلّل إلى الغرفة وأخذ يداوي رأسها المثقل. غسلت وجهها بالماء البارد

لتستعيد نفسها، أعدت شيئاً صغيراً لتسدّ به جوعها، ثم جلست تتأمل المكان. كان اليوم مثل كل الأيام؛ جامداً رتيباً، لا جديد فيه سوى الأخبار العالمية والسياسية التي تصدح بها القنوات. عالم صاخب في الخارج، وسكون مملّ في الداخل.

كل الأيام كانت متشابهة عند سارو، باستثناء يوم السبت؛ اليوم الوحيد الذي كانت تخرج فيه لتقابل صديقتها دينا. دينا كانت شريانها الوحيد نحو الحياة، تحمل عنها ما لا تستطيع تحمله وحدها، تصدقها دون شرط، وتستقبل كل كلماتها مهما كانت ثقيلة. معها فقط كانت سارو تتنفس.

في ذلك السبت كانتا تتوجهان إلى مقهى اسمه «قهوة القراء». الاسم ليس غريباً على المكان؛ كل من فيه قراء أو كتّاب في بداياتهم. والعجيب أنّ النادل هناك لا يقدّم القهوة أولاً، بل يقدّم الكتب. القهوة تصنعها بنفسك من آلة صغيرة في الزاوية، أما الكتب فتقدّم لك عشوائياً.

في البداية بدا المكان غريباً، لكن شيئاً فشيئاً أدركت سارو أنّه مكانها الحقيقي، المكان الذي يشبهها ويحتويها. صارت تقضي فيه ساعاتها كلما انزعجت، تشرب قهوتها وتقرأ كتاباً حتى يتغيّر مزاجها السيئ، ثم تعود مسرعة إلى المنزل، ومنه إلى غرفتها، كأنها تقطع رحلة سرية بين عالمين.

كانت سارو قد اعتادت أن تقابل دينا عند جسر المدينة الوحيد، الجسر الذي صار لهما ملاذاً صغيراً منذ أيام الدراسة، منذ تلك المرة الأولى التي هربتا فيها من حصة الرياضيات عند الأستاذة "جورجيت المخيفة" – كما كانتا تسميانها وتضحكان.

ذلك اليوم جلستا على الحافة نفسها، والماء تحتها يعكس سماءً رمادية.

قالت دينا وهي تحرق في الماء:

– «يبدو أن الأمور لن تتغير في منزلك أبداً!»

تنهدت سارو وقالت بصوت يختلط فيه الضيق باليأس:

«وكيف ستتغير؟ أمي لا تتركني أتصرف بحريتي أبداً، ولا حتى أخرج إلا إذا كنتِ أنتِ معي.»

دينا مالت برأسها نحوها:

«وماذا ستفعلين إذن؟»

ردت سارو بحدّة صغيرة لكنها مشبعة بالألم:  
«لا أعلم... أريد أن أرحل من هنا. إلى أي مكان آخر.»

ضحكت دينا محاولة تخفيف الجو:  
«وإلى أين ستذهبين أيتها المخبولة؟»

همست سارو وهي تحرق بعيداً:  
«إلى أي مكان... لا يهم.»

في تلك اللحظة لاحظت سارو أن هاتفها يرن بلا توقف.  
نظرت إلى الشاشة: والدتها تتصل مراراً.  
أخبرت دينا بصوت خافت أنه ينبغي عليها العودة.  
وافقتا على لقاء آخر، لكن في داخلهما شعور ثقيل أنه ربما لن  
تلتقيا ثانية.

سارت سارو في نفس الطريق الذي جاءت منه، وداخلها ضجيج أفكار: كيف يمكنها أن تترك هذا البيت إلى الأبد؟ كانت تحب والديها لكنها لم تعد تحتمل معاملتهما لها.

همست لنفسها وهي تشد قبضتها على حقيبتها:

«لا أعتقد أن أمي تعاملني وكأنني ابنتها... الأمر أفظع من ذلك. تراني دائماً مخطئة، وهذا لا يحتمل. حاولت أن أجعلهما يفتخران بي، لكن لم يحدث. إنها لا تثق بي.»

ثم تابعت وهي تسرع في مشيتها، تتنفس بغضب:

«ربما سيفرحان بمغادرتي.»

بدأت تتحدث مع نفسها بصوت مسموع كأنها تحشد شجاعتها: يجب أن أغادر هذه القرية إلى الأبد.

وحين اقتربت من الشارع الذي تقطن فيه، انتابها ذلك الشعور الغريب مرة أخرى. كل المنازل كانت مظلمة إلا منزلها الذي بدا وكأنه محاط بهالة خافتة تلمع، شيء في المشهد جعل قلبها ينبض.

الحي بدا فارغاً على غير العادة، بلا أصوات، بلا وجوه. هذا الحي الذي كان يضج بالحركة في مثل هذا الوقت صار ساكناً، حتى قطط الجارة "ليلي" – وكان عددها كبير – اختفت تماماً.

توقفت سارو لحظة، نظرت إلى منزل عمها "رضا" عسى أن يكون موجوداً أو أن يخرج أحد يطمئنها. اقتربت أكثر من نافذته، قلبها يدق بشدة، ورفعت رأسها لترى...

تابعت سارو خطواتها ببطء نحو المنزل، الضوء الذي كان يغمره قبل قليل أخذ يخفت كلما اقتربت أكثر، حتى اختفى تماماً. توقفت ومسحت عينيها بيديها، تحاول أن تدرك إن كان ما تراه حقيقة أم وهماً يعبث بها. فجأة ساد الظلام الحي بأكمله، لم يعد هناك سوى النجوم البعيدة تلمع في السماء كأنها تشهد عليها. شعرت بشيء مخيف، فاندفعت نحو الباب، فتحتة بسرعة ودخلت وأغلقتة خلفها وهي ترتعش.

صوت جاء من خلفها فجأة هز قلبها:

«ما بكِ؟ ولماذا كل هذا الخوف؟»

استدارت ببطء، فإذا بوالديها، رضوى وتامر، يقفان خلفها مباشرة. كل الغرف كانت مضاءة كالمعتاد، لا أثر للهالة ولا للظلام الذي ابتلع الحي منذ لحظة.

ارتجفت الكلمات على لسانها وهي تخبرهما بما رأت، بكل ما حدث بالخارج، علّ أحداً يصدقها. لكن والدها أمسك يدها بلطف شديد وأخذها إلى النافذة، أشار إلى الخارج حيث كانت المنازل تبدو عادية تماماً، لا شيء غير مألوف.

قال بهدوء يشبه القَطْع:

«ربما أنتِ تتخيلين يا سارو، في الأيام الأخيرة لم تكوني بخير.»

ردّت بصوت مرتجف لكن حادّ:

«لم أكن أتخيل... أنا واثقة مما رأيت.»

تدخل تامر بصوت أبويّ يخلطه القلق:  
«أنت متعبة جداً... هذه مجرد هلوسات.»

رفعت رأسها بعناد:  
«أنا أعلم أنني رأيتها.»

لكن والدها أنهى النقاش بصوت لا يحتمل الجدل:  
«سأخذك غداً لصديقي جواد، إنه طبيب ، أفضل طبيب في  
البلد. ربما يجد لك الحل أو يصف لك دواء يجعلك تتامين،  
أنت متعبة بحق.»

كانت تعرف في قرارة نفسها أنها لم تتخيل شيئاً، لكنّها  
ابتلعت الكلمات وقالت بهدوء:  
«نعم... حاضر أبي.»

عادت إلى غرفتها، رفضت تناول أي شيء رغم محاولات والدتها المتكررة. جلست على سريرها تحدّث نفسها هامسة:

«إن كنتُ أتخيل فكيف رأيت تلك الهالة؟ وإن كان ذلك حقيقياً، لماذا عاد الحي مضاءً بالكامل عندما دخلت المنزل؟ وهل أبي يعلم ما الذي يحدث حقاً؟»

تلاحقت أنفاسها مع تلك الأسئلة حتى نال منها التعب وسقطت نائمة. لكن نومها لم يكن أماناً؛ استيقظت فزعة كما في كل مرة خلال الأربعين يوماً الماضية. كان الأمر أشبه بالواقع أكثر من كونه حلمًا، ومع ذلك كانت تعلم أنها تحلم.

همست في العتمة، صوتها يختلط باليأس:

«أريد مبرراً واحداً لما يحدث... أنا أريد المغادرة، وكل ما يدور حولي يمنعني حتى من التفكير في طريقة للذهاب...»

وتابعت وهي جالسة على سريرها، عيناها تلمعان بالخوف والارتباك:

«لم أتذكر ولو لمرة عن واقع الحلم رغم أنني رأيتَه مرارا  
... ..، أركض في حقل ذرة ليلاً، حتى سقطت في حفرة  
كبيرة جداً، اليوم... ثم أرى نفسي مكان مظلّم وغريب ...  
ثم أستيقظ من حلمي.»

صمتت قليلاً ثم تابعت تحدث نفسها

« ربما ليس عليّ النوم، لكن إن لم أنم لن أستطيع  
المغادرة، لكن الكوابيس تتعبني! »

ظلت ساهرة حتى بزوغ الفجر

تنتظر أن يستيقظ والداها. أمسكت هاتفها البسيط تبحث عن  
أي شيء يشبه ما رآته.

كتبت ثم مسحت، كتبت ثم مسحت:

«نفس الحلم يتكرر...»

لا شيء. وفجأة وقع نظرها على موقع غريب لتفسير  
الكوابيس الغريبة .

كل ما رآته زاد الأمر تعقيداً

ضربت رأسها كصفعة. تذكرت الحفرة في حلمها.

ما علاقة كل هذا بي ؟ ، اختلط كل شيء في رأسها.

كانت الساعة الخامسة صباحاً. تذكرت مكتبة قديمة في طرف المدينة، مكتبة عالية الجدران لم يزرها أحد منذ زمن بعيد. خاطبت نفسها:

«... لكن ماذا لو لم أجد شيئاً؟ على الأقل أكون قد حاولت.»

ثم غلبها التعب فعادت إلى النوم أخيراً.

في تلك اللحظة، وفي غرفة والديها، استيقظ تامر متعرقاً يتنفس بصعوبة، فأفاقت زوجته رضوى فزعة:

«ما بك؟ ما الذي حدث؟»

«حلم سيء... فقط.»

«تعرف ما يعنيه ذلك... الأحلام السيئة ليست صدفة في عرقنا.»

«خففي من توترك. لن يحدث شيء. لقد حدث ذلك قبل مئات السنوات ، قبل ميلاد ابنتنا بوقت طويل. انتهى زمن الأحلام السيئة.»

«وماذا إن رآته سارو... ما الذي سيحدث؟»

«كفاك حمقاً. لم يحدث أن اختارت الأحلام بنتاً. تختار الرجال فقط. ولم يظهر عليها أي شيء غريب. أرجوك لا تتحدثي أمامها بشيء. ما دامت لا تصدق، لن يحدث شيء.»

عاد تامر إلى السرير بينما ظلت زوجته تحدق في السقف، تفكر في مصير ابنتهما الوحيدة: هل ما قاله تامر صحيح أم أنه يطمئنها فحسب؟ استدار تامر مقابلاً السقف واضعاً يده اليمنى تحت رأسه، يبدو أنه لن ينام حتى الصباح.

حل الصباح بسرعة غريبة، وبدا على الجميع التعب والنعاس الشديدين. رغم أن سارو كانت تريد الخروج فوراً، فضلت أن تبقى حتى المساء لعلها ترتاح قليلاً. تناول والدها فطوره ثم خرج إلى العمل رغم إرهاقه، وبقيت هي ووالدتها في المنزل.

كعادة الأمهات، نظفت رضوى الغرف والحمام وغرفة الضيوف، غسلت الشرشف والزرابي، وتوجهت إلى المطبخ حيث تبدأ يومها بإعداد وجبة لعائلتها في صمت لا يزعجها أحد. أما سارو فعادت إلى غرفتها، تقلب في رأسها حلمها الذي صار يلتهمها، يتشكل كحقيقة لكنها لا تتذكره كاملاً. الآن لا تتذكر سوى إحساس سيء يراودها كل ليلة.

تذكرت كيف كانت عائلتها ترفض الكتب: لا شراء، لا استعارة، لا حتى قبول هدية. يوم كافأها العمدة بمجموعة كتب وهم طفلة، رفض والداها بشدة بحجة أن الأطفال الآخرين أولى بها. قالت سارو يومها وهما عائدان:

«لكننا لا نملك شيئاً... لماذا لم تتركوني آخذ الكتب؟»

رد تامر بصرامة وهو يشد على يدها:

«تعلمين أنه غير مسموح.»

«ولماذا؟»

«لا تطرحي الكثير من الأسئلة.»

تابعت السير صامتة، والغصّة تكبر في صدرها:

«ولولا... ما الذي جعلهما يبعدان الكتب عنّا؟ عن منزلنا؟  
ربما عني أنا... لكن لماذا؟»

رفعت رأسها وهي وحيدة الآن في غرفتها. قررت أنها  
ستذهب كما فكرت البارحة إلى تلك المكتبة القديمة، مهما  
كان الثمن.

كانت المكتبة القديمة فكرة تلمع في رأس سارو مثل شعاع  
أمل، ربما تجد هناك جوابًا لكل ما يحدث. أمسكت هاتفها  
لتنصل بدينا، لكن لا إشارة. ارتجف قلبها؛ حتى الهاتف  
المنزلي صامت.

«الكهرباء مقطوعة» قالت والدتها ببرود.

«يمكنك إعارتي هاتفك إذن» همست سارو.

رضوى لم تجب، غيرت الموضوع فجأة وطلبت منها أن  
تأخذ الطعام إلى والدها في العمل.

في البداية كانت سارو على وشك الرفض بحجة التعب، لكن فكرة أخرى ومضت في ذهنها: يمكنها بعد تسليم الطعام أن تمر على بيت دينا، ومنه إلى المكتبة.

همست لنفسها بحماس: «رائع... فكرة جيدة».

«أي فكرة؟» رفعت أمها رأسها.

ارتبكت سارو، قالت بسرعة: «أقصد يجب أن أذهب بالدراجة حتى أعود مبكرًا».

«وبماذا كنت ستذهبين، سيراً على الأقدام؟ ستصلين غداً» ردت أمها بسخرية.

بقيت صامتة حتى صاحت فيها: «أسرعي، والدك يتضور جوعاً الآن».

ركضت سارو إلى غرفتها وهي تفكر في مبرر لتأخرها. التقطت هاتفها، ثم توقفت عند دفترها، ترددت لحظة ثم وضعت في حقيبتها أيضاً. نزلت مسرعة، أخذت علبة الطعام من أمها وقبلتها وخرجت.

في الخارج، التقت الجارة ليلي تحمل قطتها. لوحت لها سارو قائلة إنها مستعجلة. نظرات القطة كانت غريبة، تحديق فيها

بكره مكتوم كأنها تعرف شيئاً. سارو لم تهتم، هي أصلاً لا تحب القوط.

ركبت دراجتها وأخذت تنتقل بين الشوارع التي بدت فارغة أكثر من المعتاد. كل شارع تتركه خلفها يزيد شعورها بالقلق. حين وصلت إلى الشارع حيث يعمل والدها نزلت عن الدراجة، حملت العلبة وتوجهت نحو البوابة.

الحارس كان هناك، وجهه متجهم:

«من أنت؟»

«أنا سارو، ابنة العامل تامر في قسم التخزين».

ابتسم فجأة ابتسامة خبيثة أظهرت أسنانه، احمرت عيناه بشكل غريب، ثم انحنى معذراً:

«تفضلي سيدتي الصغيرة، أنا متوتر قليلاً هذا سبب النسيان».

تراجعت سارو خطوة، ثم بادرت بالتحية: «لا بأس، أبي بالداخل؟»

— «نعم، إنه في الأعلى».

دخلت بسرعة، المصعد أمامها، ضغطت الزر ويدها  
ترتعثان. في مكتب والدها سلمته علبة الطعام وتظاهرت بأن  
دينا تنتظرها بالأسفل. خرجت قبل أن يسألها أي شيء.

عادت إلى دراجتها وانطلقت نحو بيت دينا. كانت تدفع  
الدواسات بقوة، الريح تصفع وجهها. ما إن وصلت حتى  
حيّت والد دينا وسألت عن صديقتها. أخبرها أنها بالداخل،  
فدخلت وصعدت لغرفتها.

دينا رفعت حاجبيها بدهشة:

«ماذا تفعلين هنا؟ ما الذي يجري؟»

«لا وقت لدي، هيا أسرعني لنذهب». قالت سارو

«إلى أين؟»

«سأحكي لك في الطريق».

بعد دقائق كانتا تسيران بالدراجة نحو المكان الذي قيل إن المكتبة فيه. تركتا الدراجة عند موقف صغير وأكملتا مشياً. الطريق بدا مهجوراً، الريح تحرك أوراق الشجر مثل همسات. سارو أخبرت دينا بأنها تريد الوصول إلى مكتبة قديمة والعودة قبل المغيب.

سألت كل منهما عدة أشخاص، لكن لا أحد يعرف.

«ربما هي مجرد أسطورة» قالت دينا.

«دعينا نبحث قليلاً، إن لم نجد أحدًا نعود» ردت سارو.

اتفقا أن يسألا ثلاثة أشخاص آخرين ثم يرجعا.

توجهت دينا إلى فتاة عشرينية، بينما دخلت سارو متجرًا قديمًا. المكان شبه فارغ إلا من عجوز تحقق فيها بعينين غائرتين. قبل أن تفتح سارو فمها، قالت العجوز:

«على بعد مئة خطوة يسارًا خلف مركز العمدة، ستجدين ستة أشجار صنوبر متلاصقة، تابعي السير نحو الأعلى، ستجدين ما تريدين. لكن شكلها الخارجي سيجعلك...»

قاطعتها دينا بحدة: «لا أحد يعلم بوجودها أصلاً».

«هشش، إنها تجيبني» همست سارو.

أكملت العجوز: «شكل المكان يبدو مغارة، لا تدعي الأشكال  
تخدعك». ثم أشارت لهما بالخروج.

في الخارج كان هاتف دينا يرن، مكالمة من والدتها. طلبت  
منهما العودة فوراً. تنهدت سارو، وعادتتا أدراجهما.

طلبت والدة دينا من سارو أن تبقى حتى يأتي والدها ليأخذها.  
فجلست في غرفة صديقتها تحكي لها ما حدث، وتخطط لما  
ستفعله عندما تسمح لها الفرصة.

حين وصل والدها أخيراً، نزلت سارو السلالم ببطء،  
خطواتها ثقيلة كأنها تحاول تأجيل المواجهة. في رأسها  
تتراحم أسئلة: ما الذي سيقولانه عن تأخري؟ عن بقائي عند  
دينا؟

في الخارج رفع والدها رأسه نحوها وصوته قاطع الهواء:  
«أسرعي، لقد بدأت... تظلم».

تظاهرت سارو باللامبالاة، صعدت السيارة وأحكمت حزام الأمان. كان والدها يطرح عليها أسئلة متقطعة، يحاول أن يستدرج منها كلمة عمّا حدث أو عن المكان الذي ذهبت إليه، لكنها بقيت صامتة، ملامحها جامدة، وأنفاسها هي الصوت الوحيد الذي يملأ السيارة. لم يجد بُدّاً من الصمت هو الآخر. دقائق ثقيلة مرّت حتى وصلا إلى المنزل.

كعادتها انسحبت إلى غرفتها دون أن تتبادل معها كلمة. بعد لحظات نادتها والدتها إلى العشاء، بصوت يحمل حرصاً و غصّة:

«سارو، تعالي نتعشى معاً، لا أحب أن تكون الطاولة ناقصة أحداً».

في الوقت نفسه كان تامر في المرآب. طلبت الأم من سارو أن تناديه. نزلت بخطى مترددة، والبرد يزحف إلى أطرافها. قبل أن تناديه لمحته يحمل شيئاً بين يديه؛ مجلّداً أسود سميكاً يكسوه الغبار كأنه أتى من زمن آخر.

ترددت لحظة ثم سألته بنبرة متوجسة:

«أبي... من أين جئت بهذا الكتاب؟ ألسنا ممنوعين من إدخال الكتب إلى المنزل؟»

تغيّر وجهه فجأة، ارتبك، سعل، وخرج صوته خافتاً بالكاد يُسمع:

«هذا... هذا يخصّ العمل. لا تخبري أمك، مفهوم؟»

ابتلعت ريقها وقالت:

«حسناً يا أبي». ثم أضافت لتغطي على ارتجافها:

«أمي أعدت العشاء وتنتظرنا».

ابتسم ابتسامة باهتة تتمم بعدها:

«نعم...».

تركته وصعدت لتساعد أمها في تجهيز الطاولة. كان بخار الأرز يتصاعد بخفة، والبيض المسلوق مصطفاً كجنود، والنقانق تفوح منها رائحة حارة، وعصير البرتقال يلمع في الأكواب. كل شيء يبدو عادياً، لكن الهواء نفسه كان مشبعاً بشيء ثقيل غير مرئي.

جلسوا جميعاً ينتظرون الأب الذي طال تأخره. كانت الأم تتنحّ ثم قالت بنبرة تحمل شيئاً من القلق:

«حبيبتي، ماذا قال لك والدك؟ هل تعلمين سبب تأخره؟»

أجابت سارو متظاهرة باللامبالاة:

«لم يقل شيئاً... قال إنه سيعود».

تنهدت الأم:

«حسناً، إن شعرت بالجوع فلا تنتظرينا».

لكنّ الأم هي الأخرى تأخرت في المرآب. كان الفضول في صدر سارو يتسع حتى صار كالكتلة الثقيلة. نهضت ونزلت بخطوات مترددة يلاحقها ارتجاف أنفاسها. ومن أعلى السلالم رأتهما؛ والدها وأمها، يمسكان الكتاب ذاته، وجهيهما مغموران بظلّ خوفٍ لم تره من قبل. لم تتمكن من التقاط ما يقولانه، فاقتربت أكثر.

الأرض تحت قدميها بدت وكأنها تهمس وتحدّر. فجأة، داست على دمية صغيرة فأصدرت صوتاً ميكانيكياً حاداً، فكشف وجودها.

التفت الاثنان في اللحظة نفسها، وأخفيا الكتاب خلف ظهريهما بسرعة.

قال تامر بصوت يحاول أن يبدو عادياً:

«ماذا تفعلين هنا؟ لقد أفرعتني»، ثم أطلق ضحكة مصطنعة باردة.

قالت سارو بهدوء:

«أتيتُ لأطمئن عليكما، الطعام يبرد».

قالت الأم محاولة التماسك:

«أخبرتُكِ ألا تنتظرينا، والدكِ منشغل بعمل بسيط».

كان ارتباكهما واضحاً كالشمس. حاول تامر أن يقلب الجو قائلاً:

«هيا نصعد، حتى طعام أمكِ وهو بارد يظلّ أشهى من طعام الآخرين... ربما عليكِ يا رضوى أن تفتحي مطعماً، وستساعدك سارو، أما أنا فسأكون المتذوّق الأوّل». أطلق ضحكة باهتة خالية من الحياة.

صعدوا جميعاً إلى الطاولة. تامر يتحدث عن عمله، الأم تقطع الخبز بصمت، وسارو تضع اللقمة في فمها بينما رأسها يموج بأسئلة تتقاذف كشرر:

«أليست الكتب محظورة؟ لماذا أحضر أبي كتاباً إلى المنزل؟  
وأمي تعلم؟ ما الذي يخفيانه عني؟»

رفعت رأسها فجأة وقالت بصوت متماسك:

«أبي، أمي، صديقتي دينا دعنتي إلى حفلة عيد ميلاد ابنة خالها.  
هل بإمكانني المبيت عندهم ... هل توافقان؟»

كانت ملامح البراءة تملأ عينيها. وافقت الأم، وأوماً الأب دون  
اعتراض. نهضت بسرعة من مكانها.

قال تامر:

«إلى أين؟ لم تكلمي طعامك».

قالت الأم:

«دعها، إنها سعيدة».

كانت سارو تُخفي توترها خلف ابتسامة مصطنعة. لم تكن هناك  
حفلة، ولا ابنة خال أصلاً. لكنها تحتاج إلى هذه الكذبة.

ما تنتظره في الخارج هو مكتبة قديمة، وربما خيط يقودها إلى  
سرّ ذلك الكتاب. لا تعرف كيف صدّقها، لكنها كانت عازمة  
على استغلال اللحظة.

صعدت درج المنزل بخفة متوترة، أغلقت باب غرفتها بالمفتاح ببطء، أطبقت الستائر كأن أحداً يترصدها، أخرجت هاتفها من جيبتها وأدارت الرقم...

دينا: «ألو... كيف حالك؟»

سارو: «أكثر من جيد، سمح لي والداي بالخروج غداً، وسأبيت عندك أيضاً».

دينا: «كيف؟ هما لا يسمحان لك حتى بالابتعاد عن المنزل، والآن يتركانك تزورين مكتبة لا تعرفين عنها شيئاً!»

سارو: «يا لك من حمقاء، أخبرتهما أنه عيد ميلاد ابنة خالك، وسيكون من الجيد أن أحضر، فوافقا».

غريب، أليس كذلك؟ لكن دعينا نفكر في الأمر...»

دينا: «ليس لي ابنة خال، أنتِ تعلمين... أووه كذبتِ عليهما. لو علما سيحرماتك من الخروج إلى الأبد!»

سارو: «دعينا من هذا الأمر، وكيف ستعرف إلا إذا أخبرتها أنتِ؟»

دينا: «حسناً، وما الذي سنفعله الآن؟»

فضّلت سارو الصمت، وضعت الهاتف على الوضع الصامت،  
وفتحت الباب بحذر شديد.

نزلت الدرج خطوة خطوة، وما إن خطت ثلاث درجات حتى  
أدركت أنّ والديها ما زالا بالأسفل، فعادت بهدوء إلى غرفتها  
وأغلقت الباب كما فعلت أول مرة. جلست على السرير وأمسكت  
بهااتها من جديد.

سارو: «ديناا، هل تسمعيني؟»

ردّت دينا بصوت هادئ جدًّا يقلّدها: «نعممم، أسمع يا سيدي  
الرقيب» ثم انفجرت ضاحكة.

سارو: «ديناا، توقفي عن المزاح، دعيني أخبرك بما سنفعله».

ثم هدأت قليلاً: «سأتي غدًا إلى منزلك، سأخبر والدتك أنّنا  
سنتمشى قليلاً، وسنسلك الطريق الذي وصفته لنا تلك العجوز...  
تتذكرينه؟ سنجد المكتبة، عساه أن يكشف لنا شيئاً».

دينا: «حسنًا».

سارو: «هيا إذاً، وداعًا، سأقابلك غدًا».

دينا: «وداعًا».

بدلت سارو ملابسها، وأخرجت بعض الأشياء من خزانها:  
دفترها، قلم حبر، مناديل، وكاميرا صغيرة الحجم.

وضعتها في حقيبتها وأبقته على الكرسي حتى لا تنسى شيئاً  
غداً. ثم تمددت بجسدها النحيل على السرير لعلّ النوم يمنحها  
شيئاً من الراحة.

لكن، ما إن أغضت عينيها حتى لمحت ضوءاً خافتاً يتسلل من  
فتحة بين الستائر، ظنته ضوء العمود الكهربائي.

غطت رأسها بالحاف عساه يختفي، غير أنّ ذلك النور أخذ يعمّ  
الغرفة أكثر. فتحت عينيها بإعياء، لتكتشف أنّ أطرافها مخدّرة،  
لا تستطيع الصراخ ولا حتى الحركة.

حاولت أن تتلمص من ذلك الشعور الثقيل الذي يقيد جسدها، لكن  
كلما حاولت كان الأمر أشبه بالغرق في موجة باردة. وعندما  
استسلمت للحظة، رفعت عينيها إلى السقف، فإذا برسومات  
غريبة تتضح أمامها، لم ترَ مثلها قط.

كانت الرسومات لأشخاص يبدو أنهم جميعًا ذكور، كل واحد منهم يحمل كتابًا بيمينه، وعلى كتفه الأيسر رمز صغير يشع نورًا شديدًا حتى كاد أن يخطف بصرها.

رگزت بصرها أكثر، كاد يغمى عليها من شدّة النور. وفجأة ظهر كتاب ضخم في وسط السقف، مفتوح على منتصفه تمامًا، غلافه مرصّع بأحجار كريمة وحروف من لغات قديمة لا تفهمها.

وعلى واجهته نفس الرمز المنقوش على أكتاف الأشخاص. ثم، وبلمح البصر، اختفى كل شيء وعاد الظلام يملأ الغرفة.

ظلت سارو ممدّدة، تتنفس بصعوبة، غير قادرة على تحريك إصبع واحد، تتساءل بين نفسها: أهو حلم... أم شيء حقيقي؟ مرت تلك الليلة ثقيلة كأنها عام كامل.

وفي الصباح التالي، جلس الجميع على طاولة الفطور. بدت علامات الإرهاق على وجوههم. تامر أعاد له الكابوس نفسه، أما رضوى فلم تنم طوال الليل

وسارو كانت تحمل بداية قصتها الخاصة تلك الليلة... قصة شعرت أنّها لن تنتهي قريبًا.

بعد انتهائها من وجبتها اضطرت سارو للخروج إلى منزل صديقتها. التعب يسحبها، فاخترت ركوب الحافلة بدل الدراجة، لا طاقة لها على قيادتها. غادر تامر إلى عمله، بينما بقيت رضوى في المنزل، ربة بيت لا تعرف عملاً سوى الاعتناء بزوجها وابنتها الوحيدة.

كان والداها يبدوان كأبي والدين عاديين تمامًا، حياة رتيبة، عمل وتنظيف وطبخ، أحيانًا نزهات إلى الحديقة أو الغابة أو البحر. لكن رغم تلك الصورة التقليدية، كان هناك شيء ما كامن خلف تلك الجدران، شيء لم تكن سارو تدركه بعد.

استقلت سارو الحافلة، ثم أخرى، ثم ثالثة. كانت الطريق طويلة، والبرد يتسلل إلى عظامها، وعيناها نصف مغمضتين من الإرهاق. ومع ذلك وصلت في وقت قياسي. اختارت أن تسلك طريقًا بعيدًا عن مكان عمل والداها قبل أن تتوجه أخيرًا إلى منزل صديقتها دينا.

كانت خطواتها ثقيلة وهي تقترب من بيت دينا. العرق يتصبب من جبينها رغم برودة الجو، فالتعب يضغط على رئتيها كصخرة.

وما إن وصلت العتبة حتى جلست تلتقط أنفاسها، تحاول أن تُعيد لعينيها القدرة على الرؤية. طرقت الباب بلطف، فلم يأتِ رد. طرقت من جديد بقوة أكبر، وفي تلك اللحظة سمعت وقع أقدام يقترب، فانتفضت واقفة.

ظهرت والدة دينا عند الباب. امرأة جميلة، لم تُغيّر السنوات ملامحها إلا بخصلة بيضاء عند مقدمة شعرها. رغم أنها في الخامسة والأربعين، إلا أن في وجهها بشاشة ودفء غريب. تحدثت بلهجة غير مألوفة:

سالي: «تفضلي يا بنيتي، دينا تحضر نفسها، دقائق وتنزل».

سارو: «شكرًا... كيف حالكِ يا خالتي سالي؟»

ابتسمت المرأة وقالت: «سارو، اتفقنا ألا تناديني خالتي».

بينما كانت الكلمتان تتلاشيان على عتبة الباب، سُمع صوت خطواتٍ على السلالم، وصوتٌ مألوف:

دينا: «لقد أتيت... أنا أنزل، لم أتأخر أليس كذلك؟»

ودعت دينا والدتها سريعًا، ووعدها ألا تتأخر. وما إن خرجتا من بوابة المنزل حتى زفرت سارو:

سارو: «أخشى أن لا نجد شيئًا... المكان بعيد، ولا نعرف حتى ما الذي ينتظرنا هناك».

دينا: «ربما نحتاج إلى شخص يعرف هذه الأماكن».

سارو: «لا تكوني سخيفة، وما الذي سنقوله له؟ إننا نبحث عن مكتبة قديمة لا نعرف حتى مكانها ولماذا؟ دعينا نذهب بمفردنا... أم أنك خائفة؟»

ارتجفت دينا قليلاً. ابتسمت سارو في وجهها لتُخفي توترها هي الأخرى، ثم أكملت الطريق. وصلا إلى متجر العجوز، لعلهما يجداها فيعرفان أكثر

لكن المتجر كان مغلقًا وكأنه لم يُفتح منذ سنوات طويلة. تبادلتا نظرات صامتة، ثم قررتا أن تخاطرا وتذهبا مباشرة نحو المكتبة.

اتبعتا التعليمات القديمة: ست أشجار صنوبر. أحصت سارو بصوت خافت: «شجرة... اثنتان... خمسة... نعم ستة».

دينا: «هي صنوبر بلا شك. في هذه المناطق لا ينمو شيء آخر».

الشوك كثيف، الأشجار متشابكة كالأصابع. داروا حولها حتى وجدوا منفذًا بالكاد يتسع لمرور جسديهما. تقدمت سارو أولاً، بينما دينا تتبعها بحذر. وفجأة توقفت دينا. بقيت سارو تتحدث دون أن تسمع ردًا. التفتت إليها فرأتها جامدة، عيناها متسعتان. تبعت نظراتها فإذا بمغارة غامقة السواد على بعد خطوات.

اقتربتا من فم المغارة، والهواء أصبح أثقل. رؤى غريبة مرّت أمام عيني سارو: ظلال ممالك قديمة، أناس بلا وجوه، السنة لهب. هزّت رأسها لتطرد الصور، ثم دخلتا. الرواق طويل، الظلام يبتلع الضوء. أخرجت دينا هاتفها وأضاءت مصباحه، فظهرت أمامهما ممرات متشعبة. اختارتا واحدًا عشوائيًا. الأرض رطبة، العناكب تملأ الجدران، والهيكل العظمية تلوّح من بعيد، لكن العتمة تخفي معظمها.

تعثرت دينا فجأة بشيء وسقطت أرضًا. حاولت أن ترى ما هو، فلامست أصابعها جمجمة بشرية. شهقت وصراخها ارتد في الجدران، لكنه سرعان ما انكسر إلى همسات مرتجفة:

دينا: «هيا... لنرحل، أنا خائفة».

سارو: «ليس الآن، وصلنا... أريد فقط كتابًا وسنرحل».

دينا: «لكن لا كتب هنا... هياكل وعناكب وفئران فقط».

تابعت سارو السير بخطوات حازمة رغم ارتجاجها، ودينا خلفها ترتجف أكثر. اصطدمت قدم دينا هذه المرة بشيء آخر. انحنت لتري، لم يكن جمجمة ولا عظامًا، بل كتابًا ضخماً غريب الشكل.

دينا: «هيا، من فضلك... وجدنا كتابًا، يكاد قلبي يتوقف، لنرحل».

سارو: «هفففف... يا جبانة، حسناً. لنعد الآن، يمكننا العودة لاحقاً».

خرجتا بنفس الطريق، حتى وصلتا إلى بيت دينا وصعدتا إلى غرفتها بسرعة، وكأنهما تخشيان أن يلاحقهما شيء من تلك المغارة. وضعتا الكتاب على الطاولة. غلافه مغطى بالغبار، ثقيل، بلغة لا تشبه أي لغة تعرفانها.

مسحت دينا الغبار وفتحتة، فرأت سارو الرسوم نفسها التي ظهرت لها في ليلتها السابقة.

ارتبكت وانقبض صدرها. قلبت الصفحات، فظهرت لهما رموز ورسومات غريبة لم تريا مثلها قط. قررتا أن تتركا الكتاب حتى تستطيعا فهم لغته.

نامت دينا سريعًا، بينما ظلت سارو مستيقظة، تحديق في الكتاب كأنه ينظر إليها، تفكر في سرّه وعلاقته بما حدث معها. حتى تسلل التعب إليها فغفت بدورها.

وفي مكان آخر، أو زمان آخر، ربما قبل مئة عام، في قرية صغيرة على ضفة نهر، حيث لم تكن دينا ولا سارو قد ولدوا بعد...

كانت هناك قرية تدعى «أنتوليا»، سُميت بهذا الاسم لكثرة مثقفها وقرائها.

كانت أقرب القرى إلى المملكة التي يحكمها أعتى طاغية عرفه التاريخ: فلوغر.

كان يمنع التعليم والقراءة عن الجميع، أطفالاً وشيوخاً،

---

كان القرار خاصًا بالذكور دون الإناث؛ فالإناث أصلاً لا يسمح لهن الحكم ومضطهدات من حقوق كثيرة

اعتادت النساء التعلّم سرًا بعيدًا عن أعين الذكور، بينما اشتغل الرجال في كل مهنة لا تحتاج إلى معرفة

باستثناء أبناء الطبقة الحاكمة:

أولاد الوزراء، وخدم الملك، وقائد الحرس، وأي من يعمل في القصر، فهؤلاء يُسمح لأولادهم الذكور بالتعلّم والقراءة والكتابة بفضل ولائهم للملك المستبد.

وبرغم استبداد «فلوغر» وحرمانه الشعب من حقوق كثيرة، فقد أضاف قرارًا آخر أكثر ظلمًا في فترة حكمه، يقضي بإعدام أي ذكر يتعلّم أو يُتقن الحروف الهجائية.

أراد جميع الذكور جهلة لا يعرفون إلا ما يبيقهم على قيد الحياة. كان السبب - رغم بساطته - أنّ الملك يخشى أن يُنتزع عرشه، وبما أنّ الحكم لا يتولاه إلا رجل، فقد قمع الرجال من كل شيء. ظلّت المملكة تسير على هذا النحو، والجميع عاجزون عن الرفض أو الرحيل.

في بيت متواضع في قرية «أنتوليا» الصغيرة كانت تعيش «ليوار» مع والدتها المعاقة وأخيها «خالد» ذي السبع سنوات في كوخ بعيد عن البيوت الأخرى.

كانت ليوار تخرج مع أول ضوء الصباح لتوقّر المال، فيما يبقى خالد إلى جوار أمه «زهور».

تترك مبلغًا بسيطًا على الطاولة كل صباح لأن أحد حُرّاس الملك يمرّ ليأخذ الضريبة؛ فإن لم تدفع الأسرة، أخذ الحارس أحد أفرادها ليكون خادمًا في القصر بلا راتب ولا فائدة لبقية عمره.

تحضّر الفطور، تضع دواء والدتها بجانب الصحن، تشعل الحطب، تغيّر لوالدتها ملابسها، ثم تأخذ شطيرة جبن وزجاجة صغيرة من الحليب وتغادر إلى عملها المتواضع في ورشة لخيطة بزّات الجنود.

تعود متأخرة كعادتها، تغسل الأواني، تحضّر عشاء بسيطاً: جبناً وحليباً وثلاث قطع خبز محمّص وشريحتين من اللحم المشوي. هكذا كانت تمرّ الأيام في أنتوليا، قرية المحرومين.

جلست ليوار على أريكة بسيطة ترتاح من تعب يومها، فيما خالد يضع رأسه على ركبته ويبدأ بأسئلته المعتادة:

خالد: «لماذا يمنع الملك الأولاد من الدراسة يا أمي؟»

ليوار: «ألم تملّ من هذه الأسئلة يا أخي؟ دع أمنا ترتاح.»

زهور (والدتهما): «ذلك قرار من الملك فلو غر... علينا الطاعة فقط. لا نريد أن يتكرر الأمر.»

خالد: «ما الذي حدث؟ ما قصدك يتكرر؟»

ليوار: «خالد! أمي لا تعني شيئاً... تقصد قصة إعدام ابن جارنا

بسبب تعلّمه فقط، أليس كذلك يا أمي؟»

زهور: «نعم، هذا ما قصدته.»

لكن خالد واصل كلامه: «ماذا لو تعلّمت في المنزل ولم أخبر

أحدًا؟». نظرت إليه ليوار نظرة حادة وكأنها تُخفي شيئاً ما، ثم

قالت له أن يصمت ويذهب إلى النوم. فامتثل لأمرها.

بعد أن نامت الأم، همست زهور: «بنيتي، أخشى أن يكبر خالد ويقود نفسه إلى حبل المشنقة. يبدو فتى طائشاً منذ صغره». ليوار: «لا تخافي يا أمي، سينضج عندما يكبر... سأحدث معه».

خرجت ليوار إلى حيث ينام خالد، جلست قربه ومشطت شعره الطويل وقالت: «أعلم أنك لم تنم، فكفّ عن التظاهر. لقد كدت تكشف أمرنا، وأمي طلبت مني أن أحرص على سلامتك. عدني ألا تفعل شيئاً». فتح خالد عينيه قليلاً، استند على الحائط وقال: «أنت تعلمين أنني لم أفعل شيئاً... أتعلمين لماذا؟ ليس لأنني أخاف ذلك الأحمق فلوغر، بل لأنك خاطرت بتعليمي». ليوار (هامسة): «هششش... أتريد أن نموت كلنا؟ ماذا لو سمعك أحد؟»

وضع خالد يديه على فمه وقال: «هممم... لقد صمت». في تلك الليلة ناما في المكان نفسه بعد أن أعدت ليوار سرير والدتها وساعدتها على الاستلقاء، ثم عانقت أباها الصغير وغفت بعمق.

بسبب التعب لم تستيقظ إلا بعد العاشرة صباحاً. نهضت بسرعة، غيرت ملابسها وخرجت دون أن تترك شيئاً لعائلتها. ركضت تصطدم بالناس، تعتذر تارة وتدفعهم تارة أخرى حتى وصلت إلى الورشة. انسحبت ببطء إلى الداخل، وبدأت العمل وكأنها موجودة منذ ساعات. وفجأة شعرت بظل خلفها وصوت يقول: «ما الذي جعلك تتأخرين؟ كنت ستطردين».

استدارت ليوار والعرق يتصبّب من جبينها، تهمس في نفسها:  
«لن أنجو هذه المرة». رفعت بصرها فإذا بفتاة شقراء الشعر،  
ترتدي فستاناً بالياً، تقف أمامها.

قالت ليوار بأنفاس متقطعة:

«هفففف... كاد قلبي يتوقف، إنها أنتِ يا أنسام!»

أجابت أنسام هامسة:

«نعم، واحمدي الله أنني أنا من وجدتكِ؛ لو رأى أحد الحراس  
تأخركِ لطردتِ الآن».

قالت ليوار:

«الحمد لله... وأنتِ ماذا تفعلين هنا؟»

أنسام:

«استأذنتُ للذهاب إلى الحمام، أردت فقط أن أطمئن إن كنتِ قد  
أتيت».

ليوار: «عودي الآن، سنتحدث بعد العمل».

أنسام: «حسناً».

عادت كلُّ منهما إلى عملها. لكن مع كل غرزة إبرة كانت ليوار تستعيد ذكرى ثقيلة. تذكّرت فجأةً أمراً غير مريح، وأدركت أنّها ارتكبت خطأً كبيراً.

في المنزل، كان خالد قد استيقظ على صوت طرق عنيف على الباب، فظنَّ أنّ شقيقته قد عادت مبكراً هذا اليوم.

تقدّم بخطوات حذرة نحو الباب، حتى سمع صوتاً مختلفاً من خلفه، صوت رجل غريب.

بفضوله المعتاد اقترب أكثر، وسأل بصوت منخفض:

«من الطارق؟»

أجابه الرجل من وراء الباب:

«أنا أحد الجيران يا صبي. هل هناك راشد في البيت؟»

خالد: «ما معنى راشد يا عمّي؟»

الرجل:

«أقصد والدك أو أحد أكبر منك في المنزل.»

خالد: «أمي موجودة لكنها لا تستطيع الحركة.»

سمع خالد خشخشة محاولة لخلع الباب، فتجمّد الدم في عروقه،  
واندفع يخبئ في المطبخ تحت الطاولة في مكان ضيق لا يمكن  
لأحد أن يراه فيه.

بقي الرجل يناديه ويحاول أن يفتح الباب، ويبدو أنّه كان يريد  
تحذيره من أمر جل، لكن خالد، وقد أطبق أصابعه على أذنيه  
من شدة الخوف، لم يسمع شيئاً ممّا قاله.

في تلك الأثناء صدر قرار طارئ من الملك بعودة جميع العمال  
إلى منازلهم، فسمح للمشتغلين بالورشة بالمغادرة.

عادت ليوار إلى بيتها، وما إن فتحت الباب حتى لم تجد أثر  
خالد. ظلّت تبحث عنه وتناديه حتى خرج فجأة من مخبئه وقال:  
«أنا هنا، كنت خائفاً قليلاً».

ليوار:

«الحمد لله على سلامتكم، لقد أقلقنتني كثيراً، ظننتك خرجت».

خالد: «كنت أختبئ من الرجل».

ليوار: «أيّ رجل؟»

خالد: «كان يطرق الباب وأراد مقابلة أمي أوك، حاول تحطيم الباب.»

ليوار:

«لا تخف، لم يحدث شيء.»

توجّه الاثنان إلى والدتهما وأخبراها بقرار الملك المفاجئ. لم يكن أحد منهم يعلم أنّ الرجل الذي طرق الباب صباح ذلك اليوم كان يريد تحذيرهم من شرّ يقترب.

مرت السنوات وماتت «زهور» بعد معاناة طويلة، وبقيت ليوار وخالد يسندان بعضهما بعضاً.

صار خالد في السابعة عشرة، وليوار في الثامنة والعشرين. ظلّ حال المملكة كما هو، ومع نضوج ليوار أصبحت جميلةً بشكل لافت، فتقدّم كثيرون لخطبتها لكنها رفضت جميع العروض حتى لا تبتعد عن أخيها.

في يوم اعتيادي خرجت ليوار إلى الورشة بينما ذهب خالد إلى المزرعة.

بدأت عملها بإتقان كعادتها في خياطة بزّات الجنود. في اليوم نفسه حضر قائد الحرس والملك بنفسه إلى الورشة ليتفقدوا تفاني العمّال وجودة الخياطة.

كان الملك يتذمّر بلا سبب ويطرد من يشاء لأن لا أحد يجرؤ على محاسبته.

اقترب الملك من ليوار، عينيه تلمعان بتسلّط، قلب البذلة التي خاطتها بين يديه، ثم أمر المسؤول عن الورشة أن يحضر له أمهر عشرين عاملاً.

قال المسؤول: «حاضر سيدي الملك».

وبدأ ينادي الأسماء: «مالك... طيبة... أنسام... منى...» حتى وصل إلى: «ليوار، تقدّمي».

قال المسؤول: «هؤلاء هم عشرون عاملاً، أفضل خياطي الورشة».

أمرهم الملك بالخروج وركوب العربات التي أُعدت لنقلهم.  
قاطعت ليوار بخوف: «أريد أن أخبر أخي».

وبّخها قائد الحرس صارخاً: «صمتاً! لا أحد يرفض قرار  
الملك. تقدّموا إلى عرباتكم... أم أنكم تريدون العقاب؟»

طأطأت ليوار رأسها وتقدّمت مع صديقتها أنسام، وركبتا عربة  
تجرّها الخيول، ليلتحقوا بخيّاطي القصر ابتداءً من ذلك اليوم.

عاد خالد إلى البيت ليجد المنزل فارغاً مظلماً، أدرك أنّ شقيقته  
لم تعد بعد. انتظرها حتى غلبه النعاس على الأريكة. نهض في  
منتصف الليل فأسكت جوعه ببعض الخبز، ثم عاد إلى الانتظار  
حتى الصباح.

في الصباح قصد الورشة يسأل عن شقيقته، لكن لم يجبه أحد.  
حاول الدخول فمنعه الحارس:

الحارس: «ابتعد يا هذا، هل تعمل هنا أصلاً؟»

خالد: «أنا أبحث عن أختي».

الحارس: «ابحث عنها في مكان آخر، وما شأنِي أنا؟»

خالد: «إنها تعمل هنا، من فضلك دعني أدخل».

الحارس: «ممنوع... إلا إذا أردت أن تعمل هنا للأبد».

انفجر خالد غاضباً وحاول الدخول...، صوته يعلو في الممرّات:

«ليووااااار! أختي، أين أنتِ؟! دعوني أدخل! ابتعد عني! دعوني أدخل... ليوار، أين أنتِ?!»

أمسكه الحارس بغلظة: «أقلت ليوار؟ لقد أخذها الملك، كانت من أبرع الخياطين».

خالد يحدّق فيه مذهولاً: «ماذا تقول؟ كيف حدث ذلك؟ ومتى?!»

الحارس ببرود: «أمس... إذا كنت لا تصدّقني اسأل الآخرين».  
ثم دفعه حتى سقط أرضاً.

نهض خالد متعثراً وعاد إلى منزله، يلهث والغضب والخوف يعصفان به. جلس على طرف السرير، يدها ترتجفان: دخول

ليوار القصر يعني أنها قد لا تخرج منه أبداً. لم يعرف ما يفعل.  
فضّل أن يعمل في يومه ويعود ليلاً إلى البيت، ثم يفكر في  
خطة. هكذا فعل، وعاد آخر الليل إلى منزله المظلم، فنام حتى  
اليوم التالي.

في القصر، كانت ليوار قد بدأت عملها في ورشة الخياطة  
الملكية. مرّ شهرٌ على وجودها هناك، والملك يكثر زيارته  
للورشة، يراقبها، يتأمل إتقانها. كان ذلك يثير الخوف في نفسها.

وفي صباح يومٍ مشؤوم، دخلت إحدى الوصيفات إلى الورشة:  
«الملك يطلب حضورك في جناحه الخاص».

تجمّد الدم في عروق ليوار. قلبها يخفق بشدّة، لكن لا خيار  
أمامها. تبعت الوصيفة حتى وصلت إلى الباب. تركتها الوصيفة  
وحدها وانصرفت. دفعت ليوار الباب ببطء، ودخلت تنتظر إلى  
الأرض، لا تجرؤ على رفع رأسها.

قال الملك بابتسامة باردة: «مرحباً أنستي، تفضّلي».

ليوار: «شكراً جلالتكم». همّت أن تنحني له، فأوقفها بإشارة:  
«لا داعي لهذه الرسميات هنا. لا يوجد أحد. أريد أن نتحدّث في  
أمر خاص».

ليوار: «حاضر».

الملك: «أنت تعلمين أنني لم أتزوَّج بعد، ويسرّني أن أختار  
زوجة من هذا القصر تؤنس وحدتي. وقد اخترتكِ أنتِ يا  
آنستي».

ليوار همست مذهولة: «لكنني عاملة في الورشة يا جلالتكم».  
الملك بنبرة حاسمة: «الملك يفعل ما يشاء».

ثم انحنى نحوها بعينين مخيفتين: «أم تريدين أنتِ وعائلتكِ أن  
تعيشوا في راحة؟»

ليوار تبتلع ريقها: «حاضر سيدي الملك... لكن لي طلب  
واحد».

الملك: «تفضّلي يا ملكتي الصغيرة».

ليوار: «أريد رؤية أخي، هو في القرية يعمل بالمزرعة. أريد  
أن أراه وأخبره بمكاني».

الملك: «لك ما تريدين. سأرسلك غداً مع الحرس».

ليوار تتوسّل: «أريد أن أذهب وحدي».

الملك يشكّ: «وكيف إن أردتِ الهرب؟!»

ليوار تردّ بثبات مصطنع: «وكيف تتزوّجني وأنت لا تثق بي؟  
بالنهاية أنت الملك ويمكنك معاقبتي إن هربت».

صمت الملك لحظة، ثم أوماً برأسه موافقاً. انحنى ليوار وانسحبت من الجناح، قلبها يضجّ بالأفكار. طوال الليل كانت تفكّر بخطة للهروب مع خالد بعيداً عن هذا الجحيم. غلبها النوم على سريرها الضيق، وهي تعرف أن الفجر قد يأتي بالنجاة أو بالموت.

مع بزوغ الصبح، دخلت وصيفة إلى الغرفة، نادى عليها بلطف:

«انهضي، أرسلني الملك لأخبرك أن تجهّزي نفسك وتذهبي إلى جناحه لأمر يخصك».

ردّت ليوار بصوت منهك: «حسناً... سأذهب».

غسلت وجهها بالماء البارد، غطت رأسها بقطعة قماش،  
وتوجّهت نحو الجناح الملكي بخطوات مثقلة، تلعن اليوم الذي  
جعل منها أبرع الخياطين وجعل جمالها طمع الملك.

طرقت الباب طرقةً خفيفاً، تمنّت ألا يسمع. لكن صوته جاء من  
الداخل يأذن لها بالدخول. دخلت وهي تنظر إلى الأرض.

الملك قال ببرود: «بعد قليل سيأتي قائد الحرس ليأخذك إلى  
بوابة القرية. يمكنك رؤية أخيك والعودة. وتعرفين ما الذي  
سيحدث إن لم تعودي».

ليوار: «سأعود... لكن أرجوك لا تؤذ أخى، أريد فقط  
الاطمئنان عليه، وأعدك أن أعود بسرعة».

الملك: «حسناً... انتظري قائد الحرس. وتذكّري، إن لم تعودي  
لن تكون العواقب مرضية... وخصوصاً لك».

كان خالد في تلك الأثناء يحرث الأرض ويسقي الزرع. يسدّ  
جوعه بقطعة خبز وقليل من الماء. ومع أوّل طرقات الصباح  
على باب بيته، قفز من مكانه ظاناً أنّها أخته، لكن ذكرى قديمة

انبثقت فجأة في رأسه... ذكرى ذلك الرجل الغريب الذي حاول اقتحام الباب وهو صغير.

تحطّمت طرقات الباب كالرعد، عنيفة ومتلاحقة، حتى خُيِّل لخالد أنّ الخشب سينهار في أية لحظة. تجمّد في مكانه، وانكمش قلبه وهو يستعيد ذكرى قديمة: يوم حاول أحد الغرباء اقتحام البيت بينما لم يكن فيه إلا هو ووالدته المعاقة. نفس الخوف، نفس العجز. توقّف بضع ثوانٍ يستجمع أنفاسه قبل أن يقترب ببطء من الباب.

جاءه صوت غريب من الخارج، أجشّ ومتعجّل: «خالد! افتح الباب!»

ازدادت دقات قلبه. الصوت بدا مألوفًا بشكل غريب، لكنه لا يجرؤ على التأكيد. يده امتدت إلى المقبض بتردد. فتح الباب أخيرًا... وفي اللحظة التالية اندفع رجل إلى الداخل وأغلق الباب وراءه بحدة.

قال الرجل وهو يمسح عرقه بنفاد صبر: «أنت وحدك في البيت، أليس كذلك؟ تكلم، لا يوجد أحد هنا؟ أين زهور؟ أين أختك؟»

ارتبك خالد، الكلمات تتلعثم في حلقه. الرجل يبدو أنه يعرف أسرار بيتهم كأنه عاش بينهم. زاد الرجل ضغطه، اقترب منه حتى كادت وجوههما تتلامس وصوته يشتعل غضبًا: «تكلم! أم أنني مخطئ؟ أنت خالد أحمد توفيق، ابن زهور... تكلم!»

تصلبت عروق رقبتة وهو يصرخ، فتراجع خالد نصف خطوة ثم تمت بصوت منكسر: «من أنت؟... نعم، أنا خالد أحمد توفيق، ابن زهور... رحمها الله.»

ارتجف وجه الرجل للحظة، دهشة ممزوجة بوجع قديم، ثم همس بصوت منكسر: «زهور... ماتت؟ متى؟ كيف حدث ذلك؟»

رد خالد بصوت منخفض، كأنه يخشى أن يوقظ شيئًا دفينًا: «لم تكن هنا... حدث ذلك منذ زمن.»

شدّ الرجل على قبضته وكنم أنفاسه، ثم سأل بلهفة: «وأين ابنتي؟»

تنفّس خالد بعمق وقال: «إنها تعمل في القصر... هناك.»  
قال أحمد وهو يلتقط أنفاسه:

"لقد عدت الآن، ويجب أن تذهب معي. ليوار بخير ما دامت القصر".

رد خالد بعناد:

"لن أترك أختي. أنت لست والدي، ما الذي جعلك تتركنا والآن عود!"

انظر إليه بغضب ثم أكمل

« أمي قالت إنك ميت".

تنهد أحمد:

"كنت مختلفياً عن المملكة ، لم أستطع العودة. الملك أعلن القبض علي وإعدامي ..... وبسبب ساحره عاجلاً أم آجلاً سيعرف مكاني ما دمتُ عبرتُ حدود المملكة".

قال خالد مذهولاً:

"أي قرار قد خالفته؟"

أجاب أحمد:

"القانون الذي يمنع رجال أنتوليا من تعلّم أي شيء".

خالد – في محاولة للتفاوض:

"وماذا إن لم يعرف الساحر؟ ماذا إن أخطأ؟"

أحمد:

"لا يمكن ذلك. عند الاحتفالية الملكية يُعدم عشرات المخالفين، وإن تغاضى عن أحدهم فليس ذلك عفواً عنه، بل قضية وقت ليس إلا".

تلبّك خالد، ولم يستطع النطق بحرف واحد. كان يعلم أنه حكم على نفسه بالموت، وما هي إلا قضية وقت حتى تصل رقبتة إلى حبل المشنقة. لاحظ أحمد ارتبأكه فسأله:

"ما الذي يخيفك؟ سأرحل مع بزوغ الفجر ما دمت لن ترحل معي، ولن يحدث لي شيء".

حاول خالد ترتيب كلماته ثم قال إنه سيذهب معه، فوافق والده واتفقا أن يبيتا تلك الليلة وينطلقا صباح اليوم التالي.

نام الاثنان، واتخذ كل منهما مكاناً يستريح فيه. سرح خالد يفكر في أخته: هل يمكن أن يلتقيا مرة أخرى؟ لكنه اطمأن لأنها تعمل في القصر حيث المسكن والمأكل والحماية. لم يكن يعلم أن ليوار ستأتي إلى المنزل في نفس توقيت رحيلهما، وهذا ما سيجعل الأمور أسوأ.

في القصر، خرجت ليوار برفقة قائد الحرس حتى يرافقتها إلى بوابة القرية ثم إلى منزلها. ركبت العربية التي جهزت بأربعة أحصنة، وظلت تفكر بطريقة تجعلها تترك هذا القصر إلى الأبد. لاحظ قائد الحرس شرودها فقال:

"التزمي فقط بكلام الملك ولن يمسك شيء، لا داعي للخوف".

هزت رأسها موافقة وأكملت تراقب الطريق الطويل.

في منزل خالد، استيقظ والده فأعد وجبة بسيطة للطور، ثم أيقظ خالد. جلسا يتناولان القليل، ثم بدأ خالد يجمع أشياء قد يحتاجها: سكين، بعض الطعام، قارورة ماء، ثياب. ما إن دخل غرفته حتى يجمع أشياء أخرى رأى صورته مع والدته وأخته فخبأها في جيبه.

كان والده يجمع أعواد الكبريت وقطعاً من القماش وفأساً صغيراً. عم الهدوء حتى سمع خالد صوتاً لم يصدق أذنيه:

ليوار أمام الباب تطرق بسرعة وتقول:

"خالد، هل أنت بالداخل؟ أسرع افتح الباب! لا يمكنني الوقوف مدة طويلة".

فتح خالد الباب وكأنه لا يصدق عودتها. احتضنها وهو لا يكاد ينطق. وعندما رأت حقيبتها تفاجأت:

"إلى أين أنت ذاهب؟"

خرج أحمد فجأة وهو يجمع حاجياته. أكملت ليوار:  
"ومن هذا الرجل؟ وإلى أين أنتم ذاهبون؟"

بقي خالد متسماً مكانه

. قطع أحمد الصمت قائلاً:

"من أنت؟ سنرحل من هنا، ليس لدينا الكثير من الوقت. هيا خالد لنذهب".

ليوار: "ما إسمك؟"

نظر إليها: "ثم أجابها وعاد يحث ابنه على الرحيل معاً"  
قالت ليوار بذهول:

"أحمد... أحمد توفيق!"

أحمد:

"نعم، لقد سمعتني. دعينا نذهب لقد تأخرنا".

ليوار:

"أنت والدي! أمي أخبرتني أنك..."

أحمد مقاطعًا:

"نعم قالت إنني أهدمت، لكنني هربت وعدت الآن لأخذ خالد معي".

لم ترد ليوار بل احتضنته وبدأت بالبكاء. اقترب خالد منهما وعانقهما معًا، فقد مر الكثير على هذه العائلة. عندما انتهى اللقاء أخبر خالد أخته بما حدث وما ينبغي فعله الآن. طلبت أن ترحل معهما.

أحمد مذهول:

"ماذا؟ تهريين من القصر؟ إن علم الملك سيعدمنا نحن الثلاثة".

ليوار:

"لا يهمني. أريد الرحيل معكم أو الموت معًا. لا أريد البقاء هناك".

حاول خالد إقناعها ثم استسلم:

"حسنًا ستذهبين معنا. سنعيش بعيدًا عن هذا المكان ولن نعود أبدًا".

خرجوا من المنزل الذي لن يعودوا إليه أبدًا. أوقفوا عربة يجرها حصان، ووافق السائق على أن يقلهم مقابل قطعيتين من الذهب.

نامت ليوار وأحمد بينما ظل خالد يراقب الطريق. فجأة توقفت العربة.

خالد:

"ما الذي يحدث؟ لماذا توقفت؟"

السائق:

"أوقفني الحراس يا سيدي. يريدون تفتيش العربة".

تبدل لون وجهه فجأة، وصُغقت ليواري. قال الحارس:  
"عرّفوا عن أنفسكم. هيا".

عرّف خالد عن نفسه. أما أحمد فالتزم الصمت. عندما تقدم الحارس منه وأمره بالكلام حاول الهرب.

لم يخطُ خطوات معدودة حتى خرّ على قدميه بعد أن غرز الحارس سيفه في بطنه.

قال الحارس ببرود:

"كل من يواجهنا سيلقى نفس حتفه".

ثم أمر صاحب العربة بالتحرك. بقيت ليوار مصدومة، حاول خالد تهدئتها وهو يلعب شعرها ويحدثها عما يمكنهم القيام به عند الخروج من هذا المكان.

تابع السائق طريقه حتى وصل. ترجلوا وتابعوا سيرهم حتى تراءت لهما قرية صغيرة على بعد أمتار،

كان الطريق في القرية ضيقًا تنتثر على جانبيه أشجار شوكية يابسة، والغبار يعلو مع كل خطوة يخطونها.

كان خالد يسند شقيقته التي أرهقها المشي، بينما تنتقل عيناه بين البيوت الطينية المتهاكّة حتى وصلا إلى ساحة صغيرة حيث يجلس بعض الرجال على حصير قديم يشربون الشاي. اقترب خالد، قلبه يخفق بسرعة، وسألهم:

– "عفوا... هل يعرف أحدكم أين يسكن أحمد توفيق؟"

نظر الرجال إلى بعضهم ثم هزّوا رؤوسهم بالنفي، إلا واحدًا كان يجلس في الظل يراقبهما بصمت. تقدّم الرجل ببطء، كان طويل القامة، متعب الملامح، وقال:

– "أحمد توفيق؟ أنت ابنه؟"

أجاب خالد:

– "نعم... أنا خالد أحمد توفيق."

تنفّس الرجل بعمق، كأنه أزال حملاً من صدره، ثم قال:

– "اتبعاني... سأدلكما على بيته."

سار الرجل أمامهما في أزقة ضيقة، الشمس تميل نحو الغروب والقرية تغرق في صمت ثقيل، لا يُسمع إلا وقع أقدامهم. بعد دقائق توقف عند بيت صغير على أطراف القرية، جدرانه متشققة وبابه مغلق بسلسلة صدئة. أشار إليه الرجل وقال بصوت خافت:

– "هذا هو بيت أحمد توفيق... هنا عاش، وهنا ترك ذكرياته."

تبادل خالد وشقيقته نظرات حائرة، بينما ابتعد الرجل تاركًا إياهما أمام الباب المهجور، والريح تحرك الغبار كأنها تهمس بسرّ قديم ينتظر أن يُكشف.

ثم ابتعد، بينما تقدّم خالد وليوار نحو الباب ودخلا المنزل الموحش.

وفي تلك الأثناء، في القصر، وتحديداً عند الجناح الملكي، كان "فلوغر" يجلس بحضرة ساحره. لم يكن الساحر عادياً، بل يمتلك كتباً قديمة تحوي من السحر ما يكفي لتحويل المملكة إلى أكثر الأماكن رعباً ووحشة. لكنه كان وفياً للملك، لا يخرج عن مشورته ولا ينفذ إلا أوامره.

تمتم الملك بكلمات غامضة ثم أشار للساحر بالخروج ليبقى وحده. كان وجهه محمراً من الغضب بسبب هروب ليوار ورفضها الزواج منه، وأخذ يتمتم بوعيدها أشد العقاب. بعد لحظات دخل أحد الحراس وقال:

"حضرة الملك، أثناء تفتيشنا للعربات الخارجة من المملكة، صادفنا غريبة مشبوهة. وعندما أمرناها بالتعريف بنفسها رفضت وحاول أحد مرافقيها الفرار فقتله أحد جنودنا."

زمجر الملك:

"لا يهـم! اقتلوا كل من يعصي أوامري. ليـزرع الرعب في قلوبهم جميعاً!"

"أمرك سيدي." قال الحارس وانحنى.

وقبل أن يخرج أوقفه الملك بصوت حاد:

"استدع الساحر فوراً، لدي أمر لا يُؤجّل."

انحنى الحارس رأسه ثم انصرف. بعد دقائق دخل الساحر إلى الجناح الملكي وقال:

"حضرة الملك، قيل لي أنك طلبتني."

أشار له الملك بالجلوس:

"نعم، اجلس. لقد قلت لي أن سحرك قادر على قتل أي شخص لا يمتثل لأوامري، أليس كذلك؟"

ابتسم الساحر بثقة:

"نعم كما أخبرتك سيدي."

"إذن أريد أن تموت هي وكل من أحبته." قال الملك بعينين متفتحتين.

تغير وجه الساحر للحظة ثم قال بهدوء:

"أعتذر سيدي، لا يمكنني فعل ذلك إن كانت خارج حدود المملكة، فهذا يفوق طاقتي."

ضرب الملك الطاولة بيده:

"افعل أي شيء وإلا قطعت رقبتك غدًا على منصة الإعدام."

تنفس الساحر ببطء وقال:

"يمكنني أن ألقى لعنة عليها وعلى عائلتها، لكن الأمر ليس بهذه البساطة."

"وكيف إذن؟ تكلم!" صاح الملك.

"بما أنها خارج المملكة، قد ننجح إذا سننت قانونًا يُغمر بسحري. كل من يخالف أوامر ك تصيبه لعنة بطيئة... ليسوا أحياء ولا أموات، ينتظرون ساعة موتهم فقط، تتناقل أقدامهم، يتساقط شعرهم، وتستمر هذه اللعنة تنهش نسلهم حتى إن نجوا هم منها."

ارتسمت على شفتي الملك ابتسامة شريرة:

"يعجبني الأمر. واجعل الكتب محرمة على نسلهم، ولو استطعت اجعل العقوبة أشد."

أوماً الساحر:

"أمرك سيدي... لكن المردة سيطلبون ثمنًا غاليًا إن كان ما تريده عظيمًا."

الملك وهو ينهض من مقعده بعصبية:

«أعطهم ما شاؤوا.»

الساحر، وصوته يرتجف لكنه يحاول أن يبدو ثابتًا:

«لا يطلبون مالاً يا مولاي... ولن أقدر أن أحزر ما سيطلبونه هذه المرة.»

الملك يلوح بيده بازدياء:

— «لا يهمني، لا تكن جبانًا، افعل ما أمرتك به.»

خرج الساحر من قاعة العرش وهو يجرّ عباءته الثقيلة، وعيناه تقدحان شررًا بين الخوف والطمع. الطلب الذي أراده الملك لم يكن عادياً، كان كفيلاً أن يغيّر شيئاً عظيماً في المملكة كلها،

لكنه لم يفكر في العواقب، لم يعد يرى إلا رغبته في الانتقام وتنفيذ أوامر سيده.

دخل حجرته المعتمة في الجناح السفلي للقصر. أشعل مصابيح زيتية وأخرج كتبه القديمة المصفرة، أوراقاً عليها رموز غريبة، ووضع على الطاولة شموعاً سوداء صغيرة أخذها من صندوق مغلق. جلس على الأرض، رسم دوائر بأصابعه داكنة، وبدأ يتمم بكلمات من لغة لا تشبه لغات البشر.

الهواء صار أثقل، والشموع انخفضت ألسنتها فجأة، ثم اندفع ضوء أبيض ساطع في وسط الدائرة كأنه برق حبس داخل الغرفة، خطف الأبصار واختفى بسرعة، تاركاً وراءه رائحة رماد حادة.

امتدت ثلاث أصابع سوداء طويلة على كتف الساحر، أصابع ذات شعر كثيف يلمع في الضوء الخافت. صدرت زمجرة عميقة من وراء ظهره، حروف مبعثرة من لغة لا يفهمها إلا هو.

استدار الساحر ببطء، وجهه بلا أي أثر للدهشة، كأنه اعتاد رؤيتهم. نعم، كانوا أربعة: أجسادهم تشبه أجساد البشر لكن أقدامهم حوافر ماعز، وأيديهم بثلاث أصابع طويلة تنتهي بمخالب سوداء، ذيولهم كثيفة الشعر تتلوى كالأفاعي، وعيونهم بيضاء تمامًا بلا حدقة، تتلألأ في الظلام. آذانهم مدببة كالماعز، وأسنانهم كبيرة مدببة تلمع كلما انفتح فمهم.

وقفوا أمامه، يملؤون الغرفة بزمجرتهم، حتى رفع الساحر يده وقال بصوت واضح:

«أحتاجكم جميعًا. بأمر من الملك، أن تخلقوا لعنة لا ينجو منها أحد، لعنة تصبح قانونًا ساريًا إلى الأبد.»

رد أحد المردة: "وما المقابل إن فعلنا؟"

رد الساحر بغير اكتراث

"أنتم إفعلوا ما أخبرتكم به ، وستنالون الذي تريدونه".

المارد: "لك ماشئت".

وتابع: "يمكنك أن تكتب كل ما تريد أن نفعله على لحاء شجرة صنوبر قديمة، بدم حيوانٍ وحشيٍّ. وما إن تنتهي،

كانت عيونهم مرعبة واصلوا التحديق به بينما تابع أحدهم كلامه

« .....ضع اللحاء في الحمّام بعد منتصف الليل، وردّد التعويذة، ... وسيتحقق ما طلبت.».

ارتجف قلب الساحر رغم خبرته الطويلة. وجهه شاحبٌ يتصعب عرقاً، لكنه تمالك نفسه وقال:

«... سأفعل.».

ابتسم المارد ابتساماً عريضةً وقال:

«أما المقابل سنأخذه بمفردنا.».

ثم تلاشى المردة من أمامه ، وبقي الساحر بمفرده لكي يقوم مهمته المعتادة ،.

بدأ يحضر ما أمره به ، و ثم خرج إلى القرية حيث بدأ يفكر أين سيجد حيوانا متوحشا الآن، وتابع مشيه حتى تبادرت إلى باله فكرة مفادها أن يقتل أحد حيوانات الملك .

فعاد الساحر مسرعًا إلى القصر ، وهو يلهث، يحمل بين يديه قطعًا من لحاء شجرة صنوبر عتيقة، وضعها على مكتبه ثم التقط خنجرًا حادًا انتزعه من أحد التماثيل التي تزين أروقة القصر.

تسلل ببطء إلى القاعة التي حبس فيها الملك جميع حيواناته النادرة، يجرّ أقدامه في صمتٍ مميت . كانت دقات قلبه عالية كأنها طبول حرب، خوفًا من الملك، وخشيةً من أن يفترسه أي وحش إن كان باب قفصه مفتوحًا، ورهبةً من المردة الذين توعدوه إن لم يحضر ما طلبوه.

ولحسن حظه كانت جميع الأبواب مُحكمة الإغلاق. اقترب نحو قفصٍ فيه فهد صغير مستلقٍ بهدوء، يتنفس ببطءٍ كأنه لا يشعر بما يحدث حوله.

غرس الساحر الخنجر في جسده مرارًا حتى تيقن من موته، ثم جلس على ركبتيه إلى جانبه. غمس إصبعه في الدم الدافئ وراح

يكتب التعويذات على لحاء شجرة الصنوبر، يخطّ الرموز بسرعةٍ محمومة قبل أن يفوته الوقت فتأتيه لعنة المردة.

ولمّا انتهى، عاد إلى غرفته، ومسح عن جسده ما علق من الدماء، ثم دخل الحَمّام وقد ارتجفت يداه، فوضع اللحاء على الأرض، استنشق نفساً عميقاً، وردّد بصوتٍ مسموع:

«أنتيكم بما طلبتم... فلبّوا ندائي!»

لم يحدث شيء. ابتلع ريقه وتريّث، ثم أكمل بصوتٍ أكثر خشونة، ترتجف حروفه:

➤ «باسم مملكة الجن... اخضعوا، وباسم الدمّ والحبّ اسمعوا... وباسم كبيركم أخرجوا!»

وما إن انتهى من كلماته حتى شعر بأن الهواء في الغرفة صار أثقل، وأن بردًا غريبًا تسلّل إلى أطرافه، فأفلت اللحاء وخرج مهرولًا إلى غرفته.

ألقي بنفسه تحت الغطاء، لا يجرؤ على رفع رأسه أو النظر حوله، يراقب حركة الريح من تحت لحيته المبتلة عرفًا. هكذا بقي حتى غلبه النعاس وهو على تلك الحال.

مع أول خيوط الشمس، نهض منهكًا وتوجّه إلى جناح الملك. طرق الباب ودخل بسرعة، وبلسانٍ متقطّع أخبره أن الطقس قد أنجز، وأن كلّ شيء صار بيد المردة كما أمر الملك.

انتظر الساحر نتائج اللعنة وهو يمتلئ بالخوف، ذلك الخوف الذي ظهر فور استدعاء المردة.

أما الملك، فبدأ سعيدًا بذلك الخبر، لكنّ قلة حيلته ظهرت لأول مرة حين أراد القيام بأعماله المعتادة.

تفاقم شعور الساحر بالتعب، كأنما لم ينم منذ أسابيع طويلة، وبدأ الأرق ينهشه. الهلوسات بدأت تتسلل إليه، فتارة كان يغيب عن الملك لساعات طويلة، وتارة أخرى كان يقاوم النوم بصعوبة.

وفي إحدى الليالي، حين استطاع إغماض عينيه ومدّ جسده المرهق، شعر بشيء قريب منه، أنفاسه الباردة تلامس وجهه. فزع وجلست رعشة جسده من الخوف.

وما إن أغمض عينيه للحظات، حتى لمح ماعزًا صغيرة تحت سريره، تحدّق فيه بعيون لامعة واقتربت حتى أصبح بينها وبينه مسافة ذرة.

صراخ الماعز أفزعه لدرجة أنه أغمض عينيه مرة أخرى، وعندما فتحها، اختفت فجأة، تاركة أثرًا من الرهبة في قلبه.

مع حلول اللعنة، بدأت أعراضها تتضح على جميع من خالفوا أوامر الملك. أصيب الناس بالإعياء والدوار دون سبب ظاهر. ليوار أحست بضعف شديد، وعزف كثيرون عن الذهاب إلى أعمالهم.

أما خالد، فلم يستطع الخروج من المنزل إلا ليجمع لهم ما يسد جوعهم.

الملك، من جانبه، كان مسرورًا؛ اللعنة أَرْضت شغفه بالقتل والاستبداد، وجعلته يتربع على عرش القوة، متفوقًا على كل الملوك في الممالك المجاورة.

وفي غرفة الساحر، بينما حاول النوم، تسللت إليه أيدي سوداء ذات أظافر طويلة ومخيفة، أمسكته من رقبتة فجأة. فزع وقفز من سريره، وعندما تأكد أن الأمر مجرد هلوسة بسبب نقص النوم، حاول العودة إلى فراشه.

لكن صوتًا مرعبًا دبّ في أذنه:

«تعتقد أنك تستطيع خداعنا؟ تحققت اللعنة، لكن ما سنأخذه أعلى مما تتصور. وإذا حاولت كسر هذه اللعنة... فاعلم أنك لعبت معنا.»

حاول الساحر دفع التهمة عنه، لكن الخوف شدّه بإحكام، فحاول التوسّل والتهديئة:

«لقد أخطأت... لم تكن دماء حيوان متوحشًا... لقد استسلمت للطمع، وتركت الحيوان لنفسه...»

ارتعش الساحر، وعينيه تحدقان في الظلام، منتظرًا بصمت ما سيحدث بعد ذلك، مدركًا أن المردة لن يتركوه دون الثمن الذي سيأخذونه بلا رحمة.

قتل الساحر أحد أطفال الخادمة، وأبقى الحيوان لنفسه حاول اقناعهم:

"تلك الدماء طاهرة، أقسم..."

لكن المردة لم يظهر عليهم أي رضا، بل ظهر الغضب في كل حركة منهم، وتوعده بأشد العقاب:

"ستنقلب اللعنة عليك، ولن تمس أيديكم أي كتاب إلا وقد مزقت أجسادكم. ولا حل لفكها سوى بتضحية أعظم منها. لقد أخذت ما أردته، وسيعذب كل من خان الملك أو خالف أو امره، لكنك ستتمنى لو لم تفكر في خداعنا."

ثم اختفوا فجأة، كما لو لم يكونوا موجودين من البداية.

بقي الساحر واقفاً وسط الغرفة، حتى انزلق إلى الأرض، والدماء تنزف من فمه وأنفه، واحمرت عيناه حتى سقط بلا حراك.

تلك كانت نهايته، التي لن يتألم لفراقه أحد سوى الملك، الذي كان يحتاجه ليبقي سلطته وملكه ونصره.

الغريب أن جسده اختفى بالكامل، ولم تبق سوى كتلة دم واحدة، ويقال إن المردة الصغار تغذوا على ما تبقى منه، حتى ظن الملك أن الساحر قد فر من المملكة، فأعلنه خائناً.

في الغابة، قرب منزل ليوار وأخيها خالد، مرَّ شهران على توажدهما في هذا المكان. رغم مرضها الشديد، كانت ليوار تتظاهر بالصحة، تخفي ضعفها عن الجميع حتى في أشد حالاتها.

وفي المملكة، بدأت اللعنة تؤتي ثمارها: ارتفعت عدد الوفيات، تراجع حال المملكة، ضعف الجيش، وتقلصت أرباح الخزينة الملكية. كان ذلك بداية العقاب الحقيقي.

رغم تعب الملك وإرهاقه، إلا أن رؤية المملكة التي عرفها قوية تتهاوى أمام عينيه أشعل فيه غضبًا جديدًا، فأمر بتجنيد المزيد من الرجال، وتزويد اليد العاملة، ومضاعفة المعدات العسكرية.

وبينما يواصل الملك تحصينه، انخفض عدد السكان بنسبة بشدة ، ما جعل المملكة تواجه فوضى حقيقية، فقد بدأت رحلة سقوطها الحتمي تحت وطأة اللعنة والجنون الملكي.

تدهورت أحوال المملكة بسرعة، بينما ظل خالد وشقيقته يصارعان مرضهما بلا كلل.

في أحد الأيام، خرج خالد باحثًا عن حل لعلاج شقيقته، فمر على شيخ عجوز وسأله عن محل لبيع الأعشاب والدواء الطبيعي. أشار له الشيخ إلى كوخ صغير بين بعض الأشجار. شكر خالد الرجل وتوجه إليه مباشرة.

ما إن دخل الكوخ ووصف للشيخ حالتها، حتى رد عليه الأخير بصوت هادئ لكنه يحمل قسوة الحقيقة:

"لا شيء هنا سيشفيكما مما تعانيان. هذا ليس مرضاً يُداوى بالأعشاب، بل لعنة حُلَّت على سكان المملكة. وأنتما لستما الوحيدين المتأثرين."

توسل خالد، مراجعاً قلبه، طالباً المساعدة أو أي حل لإحياء شقيقته التي تركها تنتظر وحدها. بعد لحظة صمت وفكر، أجابه الشيخ:

"تضحية... هذا النوع من اللعنات لا يُفك إلا بتضحية بشرية. لكن دعك من هذا الأمر، يبدو أنك إنسان طيب، ولن تستطيع إيذاء أحد."

عاد خالد إلى الكوخ ليخبر شقيقته بما سمع. حزنت بشدة، ثم قالت بصوت خافت:

"هذا كله بسببي... هربي من القصر جعله ينتقم."

ابتسم خالد بحزن، ممسكاً بيدها:

"لا تقلقي، سنجد حلاً معاً."

مرت الأيام، وتدهورت صحتها أكثر فأكثر، إلا أنهما قررا الصبر والتحمل.

على أن يدفن أحدهما الآخر إذا مات أولاً، وانتظرا موعد الموت بلا خيار للنجاة.

وفي إحدى الليالي، ظهر فجأة ضوء ساطع غطى جميع قرى المملكة، وصدر دوي هائل أرعب كل الكائنات. هربت الحيوانات، وكادت أصوات الدوي تصم آذان البشر. ولكن بعد دقائق معدودة، هدأ كل شيء وعاد إلى حاله، إلا أن أثره ترك الجميع في رعب وقلق شديد.

في الصباح، استيقظ سكان المملكة على خبر مذهل: موت الملك الظالم. اعتبروا هذا اليوم عيداً لهم، فقد انتهى الظلم والفساد أخيراً.

وتداول الناس القصص عن مصيره المرعب، فقد مات مريضاً، تآكل الديدان جسده، وتنشب الكلاب في جثته، بلا جنازة أو مقبرة تكرمه.

في منزل خالد، عاد الابتسام إلى وجهه، وأخبر شقيقته:

"لقد مات الملك الظالم، وتخلصنا من شره. يمكننا الآن التحرك، والهرب إلى بلاد بعيدة... رغم أن المرض لا يزال يلاحقنا."

فكر خالد ملياً، ثم قرر بيع الكوخ الذي يقطنان فيه، وأن يدفع لأحد سائقي العربات لينقلهما بعيداً عن المكان، آملاً أن يخلصهما ذلك من لعنة الملك كما تخلصا من شره.

اتفقا أن يغادرا في صباح اليوم التالي، آمليْن أن تنجح خطتهما.

وبينما كان يبحث عن مشتري للكوخ، اقترب منه رجل يبدو في الخمسينات، يضع في فمه عوداً من السجائر، وقال بلهجة مباشرة:

"أنا آخذه منك بقطعتين من الذهب."

خالد: "أربعة! إثنان مبلغ قليل جداً، لا أستطيع البيع."

الرجل: "اجعلها ثلاثة وسأخذه. لن يقبل أي شخص أن يشتريه بمبلغ كهذا، فلا أحد يملك المال هنا. ثم يمكنهم بناء كوخ من الحطب، فكر جيداً."

فكر خالد قليلاً، ثم وافق. أخرج من جيبه ثلاث قطع وأعطاهما للرجل، وسار معه حتى يريه مكان الكوخ. اتفقا على أن يرحل منه غداً.

عاد خالد إلى الكوخ ونام منتظرًا حلول الصباح، عسى أن يتمكنوا من الرحيل. وبمجرد طلوع الشمس، خرج خالد يبحث عن شخص ينقلهم، بينما جلست ليوار تنتظره بصبر.

وعاد أخيرًا بعد أن جمع بعض الأغراض، وقوارير من الماء والطعام تكفيهم لرحلتهم. ثم انطلقا من القرية، بعيدًا عن كل ما عانيه طوال أعوام، متوجهين إلى بلدة بعيدة عن أنتوليا. هناك انتهت كل آثار اللعنة، وشفي خالد وشقيقته كما لو كانوا يعانون من نزلة برد بسيطة.

فوسيلة كسر اللعنة كانت الهروب والابتعاد عن المملكة قدر المستطاع.

وفي المملكة، وبعد وفاة الملك، لم تدم سعادة السكان طويلًا، إذ استولى على الحكم ملك جديد غريب عن المكان، لا يعرفه أحد من الناس. أحاط نفسه بحاشية خاصة ووزراء لخدمته

ومنع تجارة الفضة وبيع المرايا، وأغلق القصر أمام جميع الزوار، حتى وإن كانوا من ممالك أخرى.

يومًا بعد يوم، عادت المملكة إلى حزنها، وأغلقت أبوابها على نفسها، حيث أمر ببناء سور عظيم يمتد شمالًا إلى البوابة الرئيسية وينتهي عند بوابة أنتوليا جنوبًا.

ومنذ ذلك الوقت، وبعد مرور أربعة أشهر على تغير الحكم، شهدت المملكة ارتفاعًا كبيرًا في استهلاك الحيوانات، دون سبب واضح.

بسبب فقر السكان واحتياجاتهم، لم يكن هناك أي مبرر لهذه النسب، فقد اعتاد السكان على تناول الأرز والخبز لسنوات طويلة.

وبسبب ظلم الملك السابق، لم يكن أحد من سكان المملكة يستطيع جمع ثروة حقيقية.

كانت الضرائب تثقل كاهلهم، فتمتلئ خزانة القصر بينما تفرغ جيوب الناس.

وبعد مرور ستة أشهر على تولي الملك الجديد الحكم، خرج لأول مرة ليلقي خطابه أمام سكان المملكة الذين تجمعوا في الساحة ينتظرون.

دفع هذا ذاك، ظناً منهم أن الحاكم الجديد سيكون أفضل من السابق.

بدأ الملك كلامه قائلاً:

"شعبي، جميع العاملين بالقصر، أنا الملك ماردي. منذ اليوم الذي دخلت فيه هذا القصر، أنا ملككم، ومهمتكم أن تطيعوني. ومن يخون ثقتي، سينال أشد العقوبات."

ثم تابع:

"كان عليّ أن أتخذ هذا القرار بعد حكم ملككم السابق..." ثم أشار إلى حراسه قائلاً:

"أي شخص لا يظهر ولاءه، سيعاقب أشد العقوبات."

استغرب الناس اسم الملك الجديد، إلا أن دهشتهم كانت أكبر من لهجته الغريبة والمرعبة التي بدت تهديداً أكثر من كونها خطاباً.

ومن بين الحشد، اقترب الأطفال يراقبون الملك، بينما كان يقسم مهام مساعديه.

فقال أحد الأطفال الصغار وهو يشد ثياب أمه:

"أمي، لماذا للملك ذيل أسود مثل الحيوانات؟"

ردت الأم:

"كفاك تخيلاً، أعلم أنك مللت الانتظار، قليلاً وسنذهب."

لكن الطفل لم يهدأ، وهو يشد رداء أمه:

"لكن أمي، أنظري! هناك ماعز صغير خلف الملك، هل هو حيوانه الأليف؟"

ظل الطفل يراقب الماعز الصغير، حتى لاحظ أنها تحديق فيه وكأنها تعرف ما يفكر به. فجأة احمرت عيناها بشكل غريب، ما جعل الطفل يتراجع خطوة إلى الوراء، وأحس بقشعريرة تسري في جسده.

الملك واصل كلامه بلهجة أكثر حدة:

"من يخالف أوامري، لن ينجو من عقابي، وكل من يتجرأ على العصيان سيعرف معنى الخضوع."

وبينما وقف الناس مشدوهين، كانت الماعز الصغيرة تحدق  
بالطفل بعينين تتوهجان بلون أسود قاتم، وكأنها تحمل سرًا  
مظلمًا يربطها بالملك وقواه الغريبة.

مرعب، فاغلق الطفل عينيه بقوة، يضغط على أذنيه، لكن  
الصرخة خرجت منه بلا رحمة، تزلزلت جدران المكان  
وهمست الأرواح حوله. وما إن فتح عينيه، لم يكن هناك أثر  
للماعز، إلا أن صدى النظر المخيف ظل يتوغل في رأسه.

الأم، متوترة، حاولت تهدئته، بينما الملك الذي بدا منزعًا من  
الصوت، يراقب بحذر كل تحركاتهما، فأخذت الأم تهرب بالولد  
بعيدًا بهدوء:

الأم: "ما بك! كدت تؤدي برقبتي إلى المشنقة! ألم تستطيع  
الصبر قليلًا؟"

الولد، يرتجف:

"الماعز... لقد كان ينظر إلي... بعينين لا تشبهان أي شيء  
رأيت من قبل!"

سارت الأم بخطوات سريعة، متجاهلة الرعب الذي في قلب ابنها، تقول: "أعلم أنك تخاف من الحيوانات، لكن لا تعد الكرة، ماعز صغير لن يفعل شيئاً."

لكن الطفل لم يهدأ، فقد سمع صوتاً خافتاً، يشق صمت المكان ويخترق عقله:

"إذا، لا يمكنك كتم الأسرار..."

استدار ببطء، ووجد الماعز قد تغير، أصبح أطول وأكبر، أبشع مما تخيله، عيناه تشعان بلون أسود قاتم، تنظر إليه مباشرة وكأنها ترى أعماق روحه، فتجمد مكانه، والبرد يتسلل إلى عظامه، وقشعريرة لا تفارق جسده.

كل شيء حوله أصبح ساكناً، حتى الريح توقفت، وصوت دقات قلبه وحده يملأ المكان.

شعور بالرهبة خيم على نفسه، وبدأ يدرك أن هذه اللحظة ليست مجرد حلم، بل حقيقة مظلمة، وأن المجهول قد دخل عالمه إلى الأبد.



الكتب الحرمة ليست مجرد صفحات بل أبواب لقوى مظلمة  
تلوّح بلعنتها لكل من يجرؤ على الاقتراب

الشر ليس في الظلال، بل في الصفحات نفسها .

سارة مناعي